... مِن ماءٍ وطين

• **عنوان الكتاب:** ... من ماء وطين

• **اسم المؤلف:** د. محمد باباعمي

• **الطبعة الأولى:** 1442هـ - 2021م

• **مقاس الكتاب:** 140 × 210

• **عدد الصفحات:** 112

• **ردمك:** ISBN 978-9931-735-13-7

• **الإيداع القانوني:** جوان 2021

Copyright © 2021 Kitabook

Kitabook.net

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

د.محمد باباعمي

... مِن ماءٍ وطين

الحِراك والحَرّاث ... وقصص أخرى

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

مسرد القصص

مسرد القصص 5
الحِراك والحرَّاث: خطْ الرْمَل 7
على رصيف البنك المركزي 19
الشيطان المارد... أفتانا 36
هدية الإخوان في الميراث 50
ملحمة جزائريٍّ قايضَ جميع مالِه.... 64
امرأة نيجرية مسلمة استأنست بالذئاب،... 73
الداعشي الصغير: من إنسان مسلم إلى ملائكي.... 78
طباخة العجين، وطباخ البنين 86
صاحبة الدَّيْن 94
عربة العم رمضان 97
شمس تسطع من مغربها 100
المنديل المبارك 104
فقط، عشرة آلاف دولار 107

الحراك والحراق: خَطْ الرْمَل

(1)

«يتنحَّاو ڤاع... يتنحَّاو ڤاع...»

«جيشْ شعبْ خاوَا خاوَا... جيشْ شعبْ خاوَا خاوَا...»

«لبلادْ بلادْنا واندِيرُو رَايْنا... لبلادْ بلادْنا واندِيرُو رايْنا...»

فجأةً وجد سليم نفسَه وسط بحر من البشر لا ساحل له... كتلةٍ من الناس لا حصر لها... وجوهٍ باهتةٍ وأفواهٍ طليقةٍ... عيونٍ حاذقةٍ وأيدٍ باردةٍ... تُلوِّح من بعيد، ترفُد شعارات وتمسكها بعناية شديدةٍ، ولقد خُطَّت عنوةً بدِماء ودموع... هي كلماتٌ وصورٌ وعباراتٌ بجميع اللغات، ترقُص على سطحٍ صقيل من (كتَّان)، أو (ورق)، أو حتى (كرتونٍ)...

من يساره شيخ أبيض الشعر، كثُّ اللحية، يصرخ مرَّة أو مرَّتين... ثم يصمتُ طويلاً، بل يبهت مديداً... وقد استسلم العجوز ـ بإيمانٍ وحرقة ـ للتيار الجارف من اللحم والدم الآدمي، يتلاعب به ـ وهو الأعرج الهزيل ـ يُمنةً ويسرةً... حتى ليكادُ يقع بين الأقدام ذاتِ العضلات المفتولة، فتسحقُه وتحيلُه تراباً؛

إلَّا أنه تمالك، وقاوم، وأنهى الشوط بسلام...

أمامه ثلاثُ بنات، يتخمَّرن الأخضر والأحمر والأبيض، فيما يشبه (علَم الجزائر)؛ لكنَّه غير متقن النسج والرسم... كانت إحداهنَّ ترتدي فستاناً فتَّاناً، لكأنها في عرسٍ... أمَّا الأخريَيْن، فكنَّ يلفُفن شعرهنَّ في خمار ملوَّن مورَّد جميل...

ومن جهة اليمين... والخلفِ... بعيداً عنه... وغير بعيدٍ... من كلّ مكان وزاويةٍ... بشرٌ، حجرٌ، شجرٌ... لكلٍّ واحد منهم قصَّة لا يعلمها إلَّا الله، الذي يعلم السرَّ وما خفيَ... لا أحد يعرف شيئاً عن أحدٍ... سوى أنهم واقفون على صعيدٍ واحدٍ، مرابطون على ثغرٍ واحدٍ، متفقون جميعاً على أن يقولوا:

لا... ولا... ثم لا...

لا للعهدة الخامسة...

لا للحقرة... والتمرميد... والميزيرية...

لا للتبعية لفرنسا... ولا لأذناب فرنسا... ولا لأبواق فرنسا...

لا لبقاء الحال على حاله... ولا لركود الماء حتى يصبح آسناً...

لا للكذب على الشعب... ولا لتميز العصابة عن باقي الشعب...

لا... ولا... ثم لا...

بينما السماء تمطر بغزارةٍ، والراجلون الأبطال لا يأبهون بأحد، ولا يلوون على شيءٍ... يتبلَّلون كدجاج وقع في بِركة ماءٍ

في يوم شديد البرودة، ثم حين قفز إذا هو يرتعش... ولا يبالي...

بينما الحال على حاله، كان سليم يرفع بكلتا يديه لائحة بيضاء طويلة، تغطي نصف قامته من الأسفل... كُتبَ عليها بخط اليد، وبحبر أسود وأحمر وأخضر... وخطٍّ غليظ... كلُّ أمله أن تلتقطه كاميرات الإعلام، أو ينتشر على صفحات التواصل... كالنار في الهشيم... ولذا راح يتصوَّر مع إنجازه (سِلفي)، تارة يرفعه، وطوراً يخفضه... ويغير الوقفة تلو الوقفة... حتى ملَّ التصوير، وواصل المسير...

اللائحة الطويلة الملساء البيضاء، جاء فيها:

سنغرق تحت

الأمطار

كي لا يغرق

أولادنا

في البحار

(2)

من بعيد هرول شابٌّ نحو سليم؛ كأنه الريحُ الصرصر العاتية، أو لكأنه القدر المشؤوم نزلَ بليلٍ... هروَل ثم وقف أمامه، وسمَّر عينيه البنّيتين الواسعتين على عيني سليم؛ فما كان من المسكينِ سوى أن حاول صرف لحظه يُمنة ويسرة؛ حياءً ربَّما، أو لأنَّه من الصِّغر لم يألف رفع طرفه وهو يواجه أحداً، بل كان ولا يزال غضيض الطرف خفيض النظر، بخاصَّة إذا كان محاوره

من الكبار: أبوه أو أمُّه، معلمه أو جاره، أو حتى بقَّال القرية... أو كان من الجنس الآخر: امرأة عمّه، أو تلميذة تدرس معه، أو حتى المرأة التي تستوقفه في الشارع لتسأله عن أقرب محل لشحن الهاتف...

(الشابُّ الصرصر) تبدو عليه أمارات التنعُّم؛ من تسريحة شعره، إلى حذائه ذي الماركة الغالية (نايك) وهو ينتعله بأبَّهة، ويقفز به مثل ديك تائه محمومٍ...

التفت إلى سليم، وباغته بلهجة عاصمية تملأ فمه:

▣ يا خُو، واش سمَّاك الله؟

◉ أنا... ؟! أنا اسمي سليم...

▣ امْنينْ انتَ... وينْ بلادَك؟

◉ جيتْ من قرية قريبة من البيَّض، قرية صغيرة، يسمُّونها (عين العراك).

▣ وينْ جايَّ؟ مَنْ جِهة قسنطينة؟ ولاَّ مَنْ جِهة وهران؟... اسمح لي، ما نَعْرفش بزاف دزاير (لا أعرف الجزائر معرفة جيدة).

سليمٌ، وكأنه ضجر من وابل الأسئلة، ومن النبرة الحادَّة والطريقة المقرفة التي يعذّبه بها (صاحبُه) ويسائله... صاحبُه الذي لا يعرف عنه شيئاً، حتى اسمه لم يسأل عنه بعدُ...

إلاَّ أنَّ (الشابَّ القدَر) لم يأخذ نفساً، فاستأنف في إطلاق أسئلته البوليسية، مثل رصاصات حية قاتلة؛ فقال:

▣ «خُويَ سليم... واشْ تخدم؟» (ما هي وظيفك؟)

سؤال كان ينتظره سليمٌ ويخشاه، بل يتفاداه؛ إلَّا أنه نزل عليه كالصاخَّة، وحطَّ فوق رأسه كالطامَّة، فقرَّر في خزانة سرّه، ودبَّر في قرارة نفسه، أن يختلق جواباً كاذباً، ويصرف (المصيبة) عنه؛ ولا بأس من المناورة في مثل هذه الحالات الحرجة، حيال ناس أشباه البشر، ذوي وجوهٍ صقيلة، وألسنةٍ لاذعة... إلَّا أنَّ الفتى لم يألف الكذب، وقد ربَّاه والداه على الصدق (في كلّ حال)؛ ولو أنَّه حاول فلا شكَّ أنه سيتلعثم ويضطرب... أصلاً قد بدأ قلبه يدقُّ بسرعة، وأنفاسه تضيق... فقال في نفسِه: «ما دمنا في حِراكنا هذا ننشُد الحرية، ونغني العدالة، نسبُّ الظلم، ونحقد على الظالمين، فلأكن صادقاً صريحاً، وليكن ما يكون...!».

بينما سليم يفكر ويُعيد، ويتردَّد في الجواب الوقح السمج؛ كان الشابُّ إلى جواره، يردّد شعارات الحراك:

▣ «كْلِيتو لبلادْ... يا سرَّاقين... كْلِيتو لبلادْ... يا سرَّاقين»

ثم لم يلبث أن أطلق لسانه، وهو يغنِّي بأعلى صوته، كلمات موزونةً جميلةً:

▣ «في وسْط لبْحَرْ، بين لمْواجْ والرمَل...

▣ غِير ربي اللي عالَم بيَ...

▣ جيتْ اليوم نحْكي احْكايَةْ مَحكُومْ...

▣ كنْت ناوِي الخِير والشُّوم...

▣ شوفْ واش اصْرا فيَ».

ظنَّ سليم أنَّ الشابَّ الهائجَ المائجَ قد ازورَّ عنه، وانصرفَ إلى حاله؛ لكن، يا لخيبة الأمل، أعاد الالتفاتَ إليه، وردَّد السؤال نفسه، بنفس النبرة الحادَّة، بل بأحدَّ منها:

▣ خويَ سليم... واشْ تخدَم؟ ما جَوَبتْنِيش سليم؟

استجمع المكدوم المكظوم قواه، ثم أجابه في هدوء حرِج، وبأوجز عبارةٍ:

◉ «ما لقيتش خدْمَة» (لم أجد وظيفاً)

▣ «واشْ... واشْ؟!» كأنه لم يسمع أو أراد التأكد...

◉ قلت لكْ: «ما نِيش نخدَم...»

توقَّف الفائرُ الجائرُ عن القفز، وأوقف كلتا يديه عن التلويح، ثم فرض على حنجرته المنطلقة لحظة صمتٍ، مُبدياً تعجُّباً خبيثاً، واهتماماً غير بريء... ثم نظر إلى سليم وهو في حيرته... نظر إليه بعيني (الثعلب الماكر)، فقال:

▣ «واش راك تستنَّ خويَ سليم؟» (ماذا تنتظر؟)

لم يمنح لسليمٍ برهة للاستفسار، إذ لم يكد يلقي كلماته المبعثرة القلقة حتى واصل في حديثه، لكنه هذه المرَّة حديثٌ ملحونٌ، مع حركات (الراب)... واصل هدره وهو (الهدَّار)... بغيةَ إيجاد رفيق له في مشروعه الواعد، بل في حلمه الأبدي...

واصل، وهو يغني، بل يقطف من كل أغنية مطلعها:

▣ «رانا مشينا حراقة، بصَّح الله غالب»

- «فلوكة والجي بي أس»
- «البابور يا مونْ امور» (فرنسية درّجت: السفينة يا حبيبي)

على وقع اللحن المتكلَّف، من طابعٍ إلى آخر، من صورةٍ ذهنية إلى أخرى... على هذا الوقع غابت الشمس في الأفق، وبدأ عمَّال النظافة، إلى جوار البريد المركزي، وجهة شارع عميروش... بدؤوا في إزالة آثار (الحراك)، في الجمعة الثالثة... ثم سمع سليمٌ من جامع قريب، لا يعرف اسمه، ولا حتى أين يقع بالضبط، سمعَ صوت الأذان:

حي على الصلاة... حي على الفلاح

الله أكبر... الله أكبر... لا إله إلا الله

(3)

بعد أسابيع من الجمعة الثالثة هذه... كان سليم و(غريمُه) على متن قاربٍ صغير، كُتب عليه بحروف وبخطٍّ أشبه بالرسم منه بالكتابة: «رَحْبَتْ لَحبَاب»... وإلى جوار الفتى تسعة من الشباب، جاؤوا من كلّ مشرب، وتواعدوا في ميناء (شعبة اللحم) بعين تموشنت، وكان كلُّ واحد منهم، بندبات وجهه، وبآثار الزمان على جلده، وبالشعرات البيض تسَّابق العمر وتقهره قبل أوانه... كان كلُّ شابٍّ رسالة ـ بلسان الحال شديدِ المِحال ـ تقول:

«ألا إنَّ الظلم الذي فررنا منه فرار الحمُر المستنفرة فرَّت من قسورةٍ، والبؤسَ الذي ألقانا في هذه الشعاب التائهة، بين مخالب الذئاب وأنياب الثعابين؛ إنما هو أشدُّ فتكاً بنا وإيلاماً

من البحار الهائجات، ومن الأمواج العاتيات...»

بداية المشوار كانت بُعيد المغرب بساعة، وقد بدا نور القمر، بقرصه المكتمل، وهو يملأ السماء نوراً، وينشر الجواهر واللآلئ على صفحة البحر الذهبية... وكان (الحرَّاقة) التسعة جنباً إلى جنب، وقد تشكَّل بهم عالَمٌ جديدٌ، عائلةٌ بديلةٌ، تاريخٌ واحدٌ، بل ومصيرٌ مشتركٌ...

صوت المحرّك يمزِّق آذانهم، ويقِّطع أفئدتهم، وبحِذائهم قارورات الغاز والمازوت، وشيءٌ من الزاد القليلِ، الذي لا يُسمن من جوعٍ، ولا يكفي إلَّا بالقدر الذي يمنع الموت مسغبةً، تحت أرجلهم تصطفُّ سترات قيل لهم (إنها للنجاة)، أغلبها لا يحتمل النفخ، ولا يحفظ الهواء...

كانوا بصوتٍ واحدٍ، غير متجانسٍ، يردّدون أغنية القدَر الصعب، تلك التي كانت يوماً ما أنشودة للنصر المؤزَّر، ينشدها جيش طارق بن زياد، وهو يحرق سفنه الواحدة تلو الأخرى على الشاطئ الآخر... كانوا يغنُّون:

اسبانيا... اسبانيا...

كاتالونيا... كاتالونيا...

ألتشي... ألتشي...

توربيخيا... توربيخيا...

ألميريا... ألميريا...

ثم لم يحسُّوا بل لم يفكّروا، فإذا هم يردِّدون وهم يغنُّون

بأعلى ما يملكون من نفَس، كأنهم يبرّرون، أو أنهم يودُّون أن يُسمِعوا البحر والحيتان... الأرض والإنسان... أنهم يحبون بلدهم الجزائر، لولا أنَّ الظروف هي التي ألقت بهم على ظهر هذا المارد المكفهّر..

يودُّون، ويبرّرون...يغنُّون، ويردّدون:

وان... تو... تري... فيفا لالْجيري...

ادزاير بلادنا... وانْدِيرو راينا...

وان... تو... تري... فيفا لالْجيري...

ولكنَّ الطاقة ما لبثت أن خفَّت، والألحان ما فتئت أن خفتت؛ وكان القاربُ الشجاع كأنه الفرس العربي الأدهم، يلتهم المسافات التهاماً؛ فالجو هادئ نسبيّاً، والسماء صافيةٌ، والرياح خفيفةٌ، حتى وإن كانت باردة بعض البرودة...

وإلى جوار سليم؛ يجلس على علبة كبيرة من خشب مائل إلى السواد، جراء الرطوبة وطول الاستعمال... يجلس ذاك الذي ساقة القدَر إليه يوماً ما... يجلس وقد بدأ الخوف يدبُّ إلى أوصاله، ولقد ظهر ـ على غير ما رآه سليمٌ من قبلُ ـ أنه ليس شجاعاً بالقدر الكافي؛ لعلَّ التنعُّم الذي ترعرع فيه وتمرَّغ، لم يحمله على الصبر والجلَد، ذلك أنَّ (خطرات النسيم تجرح خدَّه، ولمس الحرير يدمي بنانه)... يجلس وهو يتمتم ويهمهم؛ فنزغه سليمٌ بسؤال كسَر به حاجز الصمت الثقيل... سؤالٌ لم يكن يتوقَّعه في مثل هذا الموقف الذي لا يُحسَد عليه:

فيمَ تفكّر يا... يا (خو)؟

(خطْ الرْمَل) يا سليم... (خطْ الرْمَل)

واش تقصد بـ(خطْ الرْمَل)؟

كنتُ قبل عامين تقريباً، أتردد إلى (ڤزَّانة/ عرَّافة)... قالوا لي: «(هي اللي تضرَب لك خطْ الرْمَل)، وتقرأ حظَّكْ ومستقبلكْ... وما يخفاش عليها أصلَكْ وفصْلكْ، وتعرف واش اللي اِخَبِّي قلبك وعقْلَك...».

لكن، قالها مستدركاً، كأنه لاحظ بعض الامتعاض على جبين سليم...: «لكن، ماهيش عرَّافة كِيما الأُخرين، هي تصلي وتخاف ربي، وفي كلامها دايماً تقول: إلى حبْ ربي».

قال سليم مستغرباً:

واش قالت...؟ واش شافت...؟

أجاب بسجع غير مكتمل، تماماً مثل لغة الكهَّان، ولقد أجادها الشابُّ مع مرور الأزمان:

(شافتني نركَبْ موجْتِين:

المُوجَة اللُّولة نخرجْ منها سلامات...

والموجة الثانية ـ يا سليم ـ تكُلني وُتقضي عليَّ بالمماتْ...)

سليم بحروف وكلمات تتصارع بين شفتيه الزرقاوين:

كيف فسَّرتها؟ كيف فهمتها؟

قال:

المُوجَة اللُّولة هي الحراك، والموجة الثانية هي هذي (مشيرا بيده اليسرى إلى جهة الموج، وإلى عرض البحر)

واش يجمع بينها يا خويَ؟ واش انْهيَ العلاقة؟ (ما هي العلاقة بينها؟)

قال:

(وحْدة بالڤا... وحْدة بالكا... الحرَّاڤ والحراك...

الكَا عاليه تعلّيك... والڤا نازْلة تلْعب بك...)

آه ولاَّ واش رايك يا سليم؟

لم يجب سليم... أطرق رأسَه، وعادت إليه الذكريات: القرية الجميلة الهادئة... والأمُّ الحنون التي تعاني من ألمٍ مبرِّح بسبب (القولون)، ولا تجد الدواء، ولا المال لشراء الدواء... والأب الذي أحنت ظهرَه الأغنام والماعز، وهو يرعاها منذ الصبا، ويسافر بها بحثاً عن الكلأ المفقود... والأخت الصغرى، الحلوة الحدُّوثة، وهي في الثالثة من العمر، لم تعرف بعدُ للحياة حلاوة ولا مرارة...

أطرقَ، وكأنَّ رغبة في البكاء تجتاحه، إلَّا أنه استرجل وتمالك... ثم سكتَ... بخاصَّة أنَّ القارب بدأ يهتزُّ، والرياح قويت عند انتصاف الليل، ولعلَّ انحراف البوصلة نحو الغرب فيما يبدو بعَّد المسافة...

سادَ صمت رهيبٌ، وشدَّ الكلُّ يديه في كلّ ما هو ثابت، وإن لم يجد أحكم القبض على كتفِ صاحبه، أو رجله...

وكان أحدهم، لعلَّه الأكبر سنّاً بينهم، كان في عتبة الثلاثين فيما يبدو... كان يقول بصوت مترجرج متوتّر... رجرجةَ القارب، وتوتُّرَ أمواج البحر... كان يقول:

يا حفيظ!! يا حفيظ!! يا حفيظ!!

ونادى آخر:

يا خواني، شَهْدُوا... شَهْدُوا... (قولوا: لا إله إلَّا الله).

ثم سمع السمكُ هنالك في قاع البحر الأبيض المتوسط، سمع وهو يسبح برشاقة وسلاسة متنقلاً بحرية بين الشمال والجنوب، وبين الغرب والشرق... سمع السمكُ، والحوتُ، والصدفُ، والمحارُ... وكلُّ مخلوقات الله العجيبة... سمعت حروفاً، بل كلمات... لعلها فهمتها، أو لم تفهمها... من يدري؟

سمع السمكُ حناجر طرية، وأبصر وجوهاً بهية، وعاين أجساداً غضَّة... سمعها تُسلِم الروح غرقاً، فتعلو على إثرها الحقائق والمعاني نحو السماء، وترسو الأوهام والمباني أسفل الماء...

سمعها، وهي تقول:

أشهد أن لا إله إلا الله...

سمعها، ثم ردَّد صداها مشفقاً منها:

أشهد أن لا إله إلَّا الله... وأنَّ محمداً رسول الله...

برج البحري: 14-12-2020م

❋ ❋ ❋

على رصيف البنك المركزي!

تعود تقاسيم هذه القصة إلى عام 1988م، بعد أحداث الخامس من أكتوبر الدامية بشهورٍ؛ كنتُ يومها أسكن في شقة واسعة، رفقة شباب تجَّار، هم إلى الملائكة أقربُ منهم إلى بني البشر... البيتُ يملكه تاجرٌ كبيرٌ، بلغ من السخاء الذروةَ، حتى إنه لا يقبل أن يخلو (بيت الصُنَّاع) من طالبٍ جامعيٍّ؛ فكان كلَّما غادر طالبٌ حلَّ مكانه آخر، وأحياناً يجتمع اثنان أو ثلاثة لزمن طويل...

تركُن الشقَّة في زقاق ضيِّق، يطلُّ على ساحة (سكوار / بور سعيد)، وهي تقع إلى جوار مقهى (طنطنفيل) الشهير، الذي كان اسمه في عهد الاحتلال الفرنسي (المقهى الكبير للجزائر).

وشرفة الشقة تطلُّ على الباب الخلفي (للمسرح الوطني الجزائري)، ذي البناية الشامخةِ، بهندسته الباروكية الجديدة، الضخمة والمثيرة بالتفاصيل التي تشدُّ الانتباه؛ ولقد تم تدشينه ما بين ماي 1850م وسبتمبر 1853م؛ تحت مسمَّى (قاعة الأوبرا)؛ والبناية تقفُ دليلاً دامغاً على أنَّ الفرنسيين لم تكن لديهم نيَّة أن يغادروا الجزائر، بعد أن تمَّ لهم احتلالها عام 1830م.

بينما الناس يتفرَّجون في المسرح ويلجون إليه من بابه الرسمي، ويدفعون آلاف الدنانير لمشاهدة الممثلين في زيهم المسرحي المثير للسخرية أحياناً، كنَّا نحن من خلال شرفة الشقَّة، نتفرَّج بالمجان على الممثلين، وهم على حقيقتهم، بلا مساحيق، ولا لباس أسطوري، ولا ديكور... وهم في مسرح الحياة بشراً كباقي البشر، ما بين هادئٍ وفائرٍ، من الذي لا تكاد تسمع له صوتاً، إلى الذي يملأ الأجواء صخباً، وسبّاً أحياناً... السجارة بين أصابعه، علامةَ رجولةٍ، أو دليلاً على أنه (فنَّان)!.

❋ ❋ ❋

على حائطٍ صقيلٍ، أشبه ما يكون ببرزخ لا يوصف بمجرَّد الكلمات؛ فُتحت لي كوَّةٌ، أو لعلَّها فجوةٌ في الزمان؛ فأبصرتُ المستقبل واضح المعالم، وفيه ساحة (سكوار) تعُوج وتمُوج بشبابٍ على أيديهم حزمٌ من الأوراق الخضراء والزرقاء (الدولار واليورو)، يبيعونها للناس، مقابل الدينار الجزائريّ الهزيل، بنسبٍ مبالغ فيها، وفي حرية مطلقة... ولقد فرض هذا السوق نفسه باعتباره بورصة العملة الصعبة الوحيدة في الجزائر... والحال أنَّ هذا الملفَّ أعيى أمرُه الساسةَ، ووزراء المالية، والتجَّار، والمحللين... ولا يزال!!

ثم أغلقت الفجوة، وعدتُ إلى رصيف البنك المركزي...

❋ ❋ ❋

في هذه الحقبة من التاريخ، لا يمكن للمرء أن يتذكَّر يوماً

ما، أو يتحدَّث عن ساعة ما، أو يصف حدثاً ما؛ إلَّا إذا ربطه بالخامس من أكتوبر 1988م؛ ذلك أنَّ هذا اليوم المشهود، الذي يعدُّ أوَّل تمرُّد (ثورة، حراك، فوضى، رفض...) وطني في الجزائر المستقلَّة، منذ 1962م؛ هذا الحدث الذي لا يزال بالنسبة لجيلي، جيل ما بعد الاستقلال، مثل دودة القزّ، للذي لم يبصر في حياته سوى دودة القزّ، ثم ذهب بصرُه؛ فصار يقيس كلَّ شيء بدودة القز؛ فإذا وَصفتَ له الجبل أو الجمل مثلاً، سألك: لو وضعنا عدداً من دود القز متلاصقة ببعضها، كم منها تشكل جملاً، وكم تقريباً تشكل جبلاً؟

ولقد كنَّا يومها نبرمج دخولنا البيوتَ وخروجنا منها، حسب حركة الشارع؛ فحين تخفُّ وتخفتُ نلازم الدار ولا نغادر... ثم حين تنشط، ويكثر عدد المشاة في الشارع، وتتعالى أصوات محركات السيارات، نتشجَّع ثم نخرج من البيت لقضاء بعض مصالحنا الضرورية...

وفي يوم ربيعي جميلٍ، وقد مال الجوُّ فيه إلى الحرارة، كأنما يستعجل الصيف قبل أوانه؛ كنت منهمكاً في مكتبة (المركز الثقافي المصري)، التي تبعد عن (المركز الثقافي الإسلامي) شارع (علي بومنجل)؛ عشرين أو ثلاثين متراً...

في ذلك اليوم المبارك، طالعتُ كامل اليوم، من ساعة افتتاح المركز إلى أوان غلقه؛ إلَّا ساعة الصلاة بجامع طنجة القريب...

طالعت يومها كتابَ (الخوارج والشيعة) للمستشرق الألماني (يوليوس فلهوزن) تحقيق عبد الرحمن بدوي... ثم دوَّنتُ ملاحظات،

ونقلت عبارات، وسجَّلت أخطاء وغلطات... لأوظفها في بحثي الفصلي بالجامعة...

ثم، بعد العَشاءين والعِشاء، كان لنا مع الشباب في الشقة كأسُ شاي كالمعتاد، مع دردشة في شتى المواضيع، ولم يكن التلفزيون يومها يستغرق وقتنا إلَّا قليلاً؛ وسرحنا في المباني والمعاني شأن من وَهَب سفينهُ بشراعه للريح تحمله حيث تشاء...

وحين آوى الكلُّ إلى الفراش، وكانت الساعة الحادية عشرة إلَّا يسيراً، آويت إلى فراشي؛ لكنَّ النومَ جفاني، وطلَّق جفوني... فسطعتْ فكرةٌ في ذهني، مثل قطرة ماء تقع عليك من السماء بلا سابق إنذار... أن أقوم، وأرتدي ملابسي وحذائي، ثم أخرج للتسكُّع في الشارعِ، والساحةِ، والكورنيش... وألازم الحذر، حتى لا يحسَّ بخروجي مَن في الدار...

❊ ❊ ❊

ها أنذا أمام بناية (المسرح الوطني)، من جهة البوابة الرسمية، قدامي شارع (باباعزون) الذي كان اليهود في العهد الاستعماريّ يعمّدون في إحدى بناياته اليهوديات الشرقيات، ليتحوَّلن إلى يهوديات غربيات، في أيام قليلة... ومن جنبات الشارع تفوح رائحة (الويسكي)، لبعض السكارى الذين خرجوا للتو من حانة قريبة، فما كان مني إلَّا أن تفاديتهم، وتسللتُ نحو اليمين، وجهة البحر...

قطعتُ ساحة (سكوار)، لا من وسطها، بل من جهة مرور

السيارات؛ ذلك أنَّ وسطها عالَمٌ سحريٌّ مخيفٌ؛ ففيه ينام بعض المشردين، ومن لا مسكن له، ومن طرده أهلُه من البيت؛ من رجال ونساء بل وشباب صغارٍ، رماهم الزمن بكل لؤم؛ فتشرَّدوا وتسوَّلوا؛ وقطعوا كلَّ حبل بالحياة والمجتمع، وبالأهل والعائلة، وبالحي والجيران والأصدقاء ...

ثم إنَّ (البوَّالة) التي تتوسَّط الساحة، حتى في الصباح تقزز نفسي المرهفة، فأجتهد في السير أن أكون أبعد ما أكون منها... فما بالك بالليل!!

انتهيت إلى (الكورنيش) المطل على البحر، من الجهة العلوية، ولم أنزل إلى حيث تصطف سيارات الأجرة بالمئات، حيث الدكاكين القديمة للبيع بالجملة في العهد الفرنسي؛ في الممر المعروف بـ(**Les Voûtes d'Alger**) أي (أقبية الجزائر)؛ والذي بني حوالي 1860م، بناءً محكَماً على شكل طوابق... لم أنزل من تلك الجهة نحو الميناء، ذلك أنَّ الوصول إلى هنالك لا يكون إلَّا عبر أدرجٍ واسعةٍ، مظلمةٍ متَّسخةٍ، وهي بشهادة العارفين بخفايا المنطقة، من أخطر الأماكن في العاصمة، وفيها يتسلط الشباب من (المافيا) على من يخطئ فتحمله رجلاه إليها... وويل له إذا كان حاملاً لمحفظة النقود، أو مستظهراً لكيس فيه ما يُغري السراق... ولم تكن الهواتف المحمولة يومها متوفرة، وإلاَّ لكانت كذلك مصيدة للذئاب...

التفتُّ جهة اليسار، وخطوت خطوات سريعة، وجهة (ساحة الشهداء)، حيث يتربع جامع (كتشاوة) الجميل، والساحة والجامع

تحكيان قصة العهد العثماني في الجزائر، واسم كتشاوة يعني بالتركية (عنزة keçi / كيت: ساحة. وشاوا: عنزة)؛ ولقد بناه حسن باشا بسخاء، عام 1612م؛ ناقلا إلى الغرب أبَّهة الشرق، إلى إفريقيا فخر أوروبا المسلمة يومَها، شاهداً على عهد للعزَّة قد أدبر وولَّى...

ثم حوَّل الدوق (دوروفيغو) عام 1932م الجامع إلى اصطبل، بعد أن قتل نحو 4500 مصلّ، كانوا معتصمين في المسجد وما حواليه، وشوَّه جماله نكايةً بالمسلمين...

وبعد الاستقلال، كدليل على رفض كل ما هو مسيحيٍّ فرنسيٍّ، والتعلق بكل ما هو إسلاميٍّ جزائريٍّ؛ أعيدَ الجامع إلى سابق عهده، لتعود إليه الروح والنور؛ وكان أوَّل من خطب الجمعة فيه يومها، الشيخ الأديب البشير الإبراهيمي، إمام الخطباء وآية البلغاء، وذلك يوم الرابع من جمادى الثانية 1382م / الثاني من نوفمبر 1962م.

مشيتُ خطوات وهرولت نحو الساحة والجامع، لكن لم أصِل إليهما، ذلك أني قطعتُ طريق السيارات، وكان شبه فارغ من حركة المرور؛ نحو الأقواس، أسفل البنايات المطلة على البحر؛ فانتهيت إلى بناية تعلوها كتابة بخط مغربي جميل، كتب فيها: (بنك الجزائر).

لكن، ما إن وجَّهتُ بصري نحو الأسفل، نحو مدخل البنك المركزي، نحو بابه الحديدي الأسود والأصفر الجميل، ثم نحو الأعمدة التي تحمل البناية بعناية... ما إن فعلتُ ذلك حتى

وقعت عيني على (شيء)، (كومة)، (ربوة)... من قشٍّ ربَّما... فتأخرتُ بضع خطوات حذِراً وأوجست منها خيفةً...

* * *

انقشع نور ساطع من سماء مدلهمة شديدة السوادِ، وفُتحت أبواب لامعة فيها، واخترق القلبَ والعقلَ قانونُ الزمان والمكان؛ ورأيتني في بداية التسعينيات، خلال العشرية السوداء، ومثل هذه المشاهد تدفعك عنوة إلى أن تهرب بعيداً، فقد تكون قنبلةً، أو كميناً... وأحسست برعشة تهزُّ كياني، وأنا أنجو بأعجوبة من كثير من الانفجارات، لعلَّ أخطرها تلك التي هشَّمت شارع (ديدوش مراد)، وكذا قنبلة المطار... ولولا لطف الله لما نجوت... أكيد!!

* * *

ثم تشجعتُ، فتقدمت نحو (التلة)، (الكومة)... فأبصرتُ عينين زبيبتين تشعَّان من بين خروق على بطانية رمادية بالية قذرة، وقد تيبَّست ـ حسبما يبدو ـ بفعل طبقات الوسخ المتراكمة عليها...

تشجَّعت، وتقدَّمت فإذا هي امرأة نائمة إلى جوار جدار البنك المركزي، وإلى جنبها (بيدون زيت صانقو أصفر ـ قنينة زيت المائدة أصفر) وقد قطّع من أعلى، وهو يحتوي على بعض أغراضها: بقايا من الخضر والطعام، وقطع من الخبز اليابس...

حين تقدَّمتُ أكثر، وقد كانت المرأة ابتداءً ترمُقني وهي نائمةٌ، هبَّت قائمة فجلست، ورمت البطانية عن ظهرها المتعَب، وحاولت أن تقول شيئاً ما... لكنها تلعثمتْ، وهمهمتْ، وتمتمتْ،

وفهمتُ منها بعد جهد أنها تحوقل وتردد بصوت غير بيِّن، وبلسان ثقيلٍ: «لا حول ولا قوة إلا بالله... لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله».

سألتها عن اسمها، فقالت: «حورية...» ثم تمنطقت فخرج بعض الريق من بين شفتيها المائلتين إلى الأحمر الداكن...

فقلتُ: «ما شاء الله، حورية... اسم جميلٌ...» محاولاً بذلك التودُّد إليها أكثر، لكنَّها لم تأبه لما قلت...

ثم، بعد صمتٍ دامَ دقائق، وأنا أتأمَّل فيها وفي حالها، وأقرأ ندبات وجهها الذي يحكي حكايةَ جورِ الزمان، وظلم الإنسان للإنسان...

سألتها: «هل لك أهل؟ زوج، أبناء، بنات، إخوة...؟».

نطقت؛ وبدا كأنَّ على عينيها لمعان وبريق، فقالت:

«نعم، راجْلِي (زوجي) مات بنزلة الصدر، كان مدمِنا على شرب الدخان والخمر، ولم يجد المال الكافي لإجراء العملية الجراحية... ثم رَاحْ (توفي) وتركنا في بيت قصديري قديمٍ، نكريه كراء، ثم بعدَ مدَّة، ولم نجد ما ندفع به مقابل الكراء، جاء صاحبُ الدار فرمانا في الشارع بلا رحمة...».

لمَّا رأت مني الاهتمام، وعبارات الحيرة... وسمعت مني الحوقلة، والرجعلة.. واصلت كلامها مسترسلة كالريح المرسلة، كأنها ليست الحورية التي رأيتها من قبل...

قالت: (ولي بنتان؛ قُصارى ما فعلته خالتُهما، أختي الصغيرة ربي يحفظها، أنها أخذتهما إلى بيتها.. هو بيتٌ كبيرٌ (فِيلاَ)...

لكنها قالت لي: إن زوجي لا يحتمل وجودك معنا في البيت... ولقد هددها يوماً، بعد عراك بيننا بصوت عال، فقال: (يا هي... يا أنا...).

(أمَّا الابن، ذو السبعة عشر عاماً، فلا أعرف إلى هذه الساعة أين هو: لعلَّه التحق بعصابة من الأشرار، أو وقع بين يدي ابنِ الحلال، فشغَّله، وأسكنه، ورباه... لا أعرف...).

قطعتُ كلامها بالدعاء: (يا رب احفظه من كل بلاء...).

ثم قالت: (كان هذا الأمر قبل عام ونصفٍ تقريباً، إلى اليوم هذه حالتي كما ترى...).

سألتها مشفقاً: «لمَ لمْ تذهبي إلى بيت العجزة، لعلهم يتكفَّلون بك بطريقة أفضل؟».

قالت وعلامات الحيرة على وجهها: (بيتُ العجزة؟ لا أفكر في الذهاب إليه، ولا في اقتحام عتباته؛ لأني لا أملك لا وثيقة، ولا شاهد إثبات، يسمح بقبولي... مَقطوعَة مَن شَجْرة).

قلت: (ما الذي تفعلينه هنا؟ لماذا اخترت هذا المكان؟ لماذا رصيف البنك المركزي؟ لماذا إلى جوار ساحة الشهداء وجامع كتشاوة؟).

أجابت بدارجة مسجوعة:

(دراهم اللي ما تْدفّيك تْعيّيك...) (المال الذي لا يدفئك يتعبك) ...

ثم ابتسمت نصف ابتسامة ساخرة، وأضافت:

(راني نعَسْ دْراهم انْتاع دْزاير، دراهم انتاع الزاوالية... ياك؟) (أنا أحرص مال الجزائر، مال الفقراء، أليس كذلك؟)

هززتُ رأسي مؤكّداً وموافقاً... مثبتاً ومعترفاً...

قالت: (راني انْعسها باش ما يْسَرقهاش أولاد الحرام) (أنا أحرسها كي لا يسرقها أبناء الحرام).

* * *

فُتحت لي نافذةٌ في الزمن، وأبصرتُ من خلالها صبيحة الخامس من أكتوبر 1988م، والشباب يهشّمون محلات (سوق الفلاح)، في شارع (العربي بن امهيدي) القريب... يأخذون كلَّ السلع التي تقع بين أيديهم، ثم يحرقون الباقي... ثم برهةً تراءت لي جثثٌ هامدةٌ بالعشرات، وهي تَفرش ساحة أوَّل ماي، وهنا في ساحة الشهداء، وحي بلكور، وباب الواد....

ثم فُتحت لي نافذةٌ أخرى، ورأيت المستقبل ساطعاً سطوع شمس الضحى، ومنه تبينت أني في عام 2019م، وهو ماثل أمامي عياناً؛ والعصابة التي سرقت المال من البنك المركزي، وهي على متن سيارات على شاكلة أقفاص، يُحملون فيها إلى سجن الحراش، الواحد تلو الآخر... وألف مليار، وخمسة عشر ألف مليار، وأكثر منها، وأقل... هي أرقام أسمعها لأول مرة على التحقيق...

ثم فجأة مثل باب حديديٍّ كبير، أغلقت النوافذ، في عرض

السماء، وعدتُ إلى العشرين من العمر، وإلى حورية، وإلى رصيف البنك المركزي...

* * *

سألت المرأة الفحلة مستفزاً: «يا لالة حورية، الرجال لم يحرسوها، أنى لك أنت المرأة الضعيفة أن تحرسيها؟ أفهميني؟».

قالت، وكأنَّ الحكمة واتتها، كأنها تصدق مقولة «خذوا الحكمة من أفواه المجانين»، أو أنها بلغت من الإشراق ما بلغ (هبنقة) في التراث العربي... قالت:

«ما كانش بلاد ما فيهاش رجال...

الراجل... يا واشْ سمَّاك الله... الراجل مَاشي اللي عنده الشلاغم واللحية...

الراجل هو اللي يعرف ربي في كلامو وافعايلو...

الراجل هو اللي ما يكدبش على روحو، وعلى أهلو، وعلى ربُّو...

الراجل...

الراجل...

الراجل...».

بدا لي أنها لن تتوقَّف عن الكلام... بعض ما قالته فهمتُه، وبعضه ضاع مني لفظُه فضاع معناه... فأوقفتها بحياءٍ، وقاطعتها على استحياءٍ، ثم تجرَّأت واقتربتُ منها أكثر، حتى كادت ركبتي

تلمس ركبتها المرهَقة، وقلت في نفسي: (فيلكن ما يكون، لا شكَّ أنَّ شكلي الأسمر الصحراوي الظاهر، وهندامي الطلابي البسيط، واللحية الخفيفة التي على ذقني... كلُّ ذلك لا يوحي بأدنى شرٍّ، ولا يؤذن بأقلّ خطرٍ...).

مثل ريح غير منتظرة، مرَّ علينا سكّير، ثمل، يتمايل يُمنة ويُسرة، أو لعلَّه مجنون ابتلي بمعاشرة الأشرار فأفسدوه... رجلٌ طويل القامة، كثُّ اللحية، ثم وقف على رأسينا، وجشأ بصوت مرتفع كريه، يوقظ النوام، ويفزع الخالي الذهن... بدايةً ألقى على قلبي الروع، خِفته وتوجَّست منه سوءاً... وتذكرتُ يوم كنتُ صغيراً، قبل البلوغ، يومَ صَفعني بهلولٌ صفعةً براحة يده الكبيرة، كان اسمه عند الناس في بلدتي (عيسى بوزو) لا أزال إلى اليوم أجد ما يشبه الألم حين أتذكر تلك الصفعة... أو حين أقع في موقف شبيه بذلك الموقف الطفولي البعيد....

لم أنبس ببنت شفة، فقلت: «لعلَّ للمجانين قانونهم العادل، لعلَّ لهم مملكتهم التي لا يُظلم فيها إلَّا من ظلَم، ما دام العقلاء قد أضاعوا هذا الفردوس الأرضي الجميل، وما داموا قد فصَّلوا القانون حسب هواهم، وكان من شيمتهم الظلم إلَّا قليلاً...».

مرَّ علينا الرجل، والتفت إلى حورية، كأنه لم يرني، أو لعلَّه لم يرني على التحقيق، لا أدري... ثم أعاد الجشأ مرة أخرى، بصوتٍ أعلى من سابقه، بريح تزكم الأنوف، وتدفع إلى القرف... وقال:

(يا امْرة، واش راكي اديري هنا؟ روحي لدارك... يا خي

نسوان آخر الزمان...).

أجابت بجرأة، وبثقة نفسٍ:

(هْنا بلادي، هْنا داري...)

والتفتت إليَّ، وقالت مشيرة إليه: في عَشْنا ونِشْنا! (في عشِّنا ويتحكَّم فينا)

* * *

ما بين عرض الأفق وطوله، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، فُتحت فجوة في الزمان مرَّة أخرى، وإذا أنا في الثاني والعشرين من فبراير من عام 2019م، في نفس هذا المكان، قدام ساحة الشهداء، والشباب يصرخون بأعلى صوتهم:

(لبْلاد بلادنا... ونْديرو راينا)...

(كليتو لبلاد يا السَّراقين)...

قلت: «سبحان الله، هذه من تلك، وما أشبه اليوم بالبارحة...».

ثم رأيتني أسوق سيارتي، بُعيد الحراك يوم الجمعة ليلاً، مررت من هذا المكان، وتعمَّدتُ الالتفاتَ إلى موضع القصَّة، إلى بيت حورية، إلى رصيف البنك المركزي.. فرأيت الرصيف والبنك... ولكني لم أر حورية، ولا السكير، ولا بيدون الزيت، ولا البطانية... كان المكان قفراً فارغاً... موحِشاً حزيناً...

* * *

ثم عدتُ إلى العشرين من العمر... على وقع الغناء الشعبي: (يا حسراه كي كان عمري عشرين)، ورجعتُ إلى ذات المكان والزمان؛ ولقد رأيت من المرأة العجب العجاب، وحِرت من حكمتها وهي في هذه الحال المزرية، ثم رغم تلعثمها أحياناً، وكونها تغيب وتسرح بعقلها بعيداً... ثم تنساني... ثم تتذكر... فتعود إلى الحديث... مَن يدري... لعلها تتصل بالعالم العلوي هنالك... بالجن مثلا... أو حتى بالملائكة... لما رأيت منها ذلك سألتها مرَّة أخرى:

(هل تحفظين شيئاً من القرآن الكريم؟).

قالت مستنكرة سؤالي السخيف:

(كايَنْ مَسلم ما يقراش كلام ربي؟)

قلت: (وماذا تحفظين؟).

قالت: (أنا دايمن نصلي، وحتى لَدورك (إلى الآن)، وأنا نصلي، نسمع الأذان في الجامع (كتشاوة) نتكي على الحيط، ونتيمم، ونصلي صلاتي كاملة...).

ثم بحركات تمثيلية خفيفةٍ، أخذتْ حجرة ملساء صغيرة، كانت تحت ركبتها، فتيمَّمت بصورة صحيحة، ثم رفعت كلتي يديها، وكبَّرت ثلاث مرات.. أو أربعة... وأومأت راكعة ساجدة... وهي تلتفت إليَّ وتبصرني بعينيها الصغيرتين... ثم سلَّمت...

كلُّ ذلك في دقائق معدودة...

قالت، وكأنها استعادت ذكرى عزيزة عليها:

(تعرف يا ولدي.. كانت خالتي عواش، ربي يرحمها، كانت تقول لي:

(ماشي القران قاع كيفكف... (ليس القرآن كله سواء)

القرآن كالدوى... (القرآن مثل الدواء)

كل زمان ليه آيته... (كل زمن له آيته)

كل مكان ليه سورته... (كل مكان له سورته)

كل حال ليه قرانه...) (كل حال له قرآنه)

قلت سائلاً:

(وما هي آيات هذا الزمان، يا خالتي حورية؟).

أجابت على الفور، دون إطالة تفكير:

«تبَّت يدا... تبَّت يدا... هذا زمان تبَّت يدا...

ويلا حبينا نزيدو لها: (قل هو الله، وقل أعوذ... وقل أعوذ...)

* * *

ارتجت الأرض من تحتي... عادت إليَّ ذكرى الزلزال القريب.. زلزال 88... أو لعلَّ الأرض زلزلت حقيقة... أحسستُ أنَّ كثيراً مما أقرؤه، أنا طالبُ العلم في الجامعة... أحسست أنَّ كثيراً منه لا شيء، أو كَلاَ شيءٍ... ما لم يرتبط بواقع الناس، ولم ينزل إلى حيث يدِبُّ البشر... ولم يهتمَّ بالمعاناة اليومية لأمثال هذه المرأة... فمَن نَكَف عن قراءة واقعِه وأعرض، تخبط على هامش

التاريخ وأجهَض... فلم ينفعه علمه، ولا قرآنه...

كنت لأعوام عديدة بعد هذه القصَّة، كلَّما تلوتُ سورة «تبت يدا...» ربطتُها بما نقلَت خالتي حورية عن خالتها عواش... وكنتُ في كلّ مناسبة أبحث عن أبي لهب هذا الزمان؟ وعن مال أبي لهبٍ؟ وعمَّا كسب؟ وعن امرأته حمالة الحطب؟ وعن الحطب؟ وعن الحبل؟ والمسد؟... ذلك أنه لكل عصر منافقوه ومشركوه، ولكل عصر مؤمنوه ومسلموه.

* * *

هذه المرة فتح ثقب في المكان، وبقي الزمان هو ذات الزمان، بقي على حاله ولم يتحوَّل... فرأيت الموجَ جهة البحر الأبيض المتوسط في صورةٍ رائعة، رأيته وهو يصفّق، ويضرب على صخور الميناء كأنها الدفُّ... وتخيَّل لي أنَّ كلَّ قطرة، وكلَّ حبة رذاذ، تردّد مع حورية مقولتها الخالدة:

«ما كانش بلاد ما فيهاش رجال...

الراجل... يا واشْ سمَّاك الله... الراجل مَاشي اللي عنده الشلاغم واللحية...

الراجل هو اللي يعرف ربي في كلامو وافعايلو...

الراجل هو اللي ما يكدبش على روحو، وعلى أهلو، وعلى ربُّو...

الراجل...

الراجل...

الراجل...».

غاب الصوتُ، وصمت الكونُ، ثم صرصرت الريح الشديدة على سرايا رصيف البنك المركزي...

غادرتُ، وعدتُ إلى الشقة، فنمت، وحلُمت، ثم استيقظتُ على واقع أمَّة تبحث عن إمكان الخروج من الحفرة التي وقعت فيها... وسمعت صوتاً هاتفاً ينشد بلحن جميل، قصيدة الشاعر الحصري القيرواني:

يا ليل الصَّب متى غده ... أقيام الساعة موعدهُ؟
رقد السُّمَّارُ وأرّقهُ ... أسفٌ للبين يردِّدُهُ
يا أهل الشوق لنا شرَقٌ ... بالدمع يفيض مورّدهُ
ما أحلى الوصل وأعذبه ... لولا الأيام تنكدهُ
بالبين وبالهجران فيا ... لفؤادي كيف تجلُّدهُ!

* * *

الشيطان المارد... أفتانا

عبد الحق كهلٌ تجاوز الأربعين بقليلٍ؛ معتدل القامة والقوام، أسيل الوجه، وسط بين البياض والسمرة، مجعَّد الشعر... الناظرُ إليه تثيره عيناه الدعجاوان في سواد أفحم، ومقلتين واسعتين... جميلٌ جمال الرجال، وعلامة ذلك أنَّ كلَّ ما فيه من صفات خِلقية وخُلقية لا يمكن وصفها إلَّا أنها (رجولية) لا أقلَّ ولا أكثر...

ولد وترعرع، رتع وشبَّ، في عائلة كريمة، مستوية الحال، لا هي بالغنية غنًى فاحشاً، ولا هي بالفقيرة فقراً مُدقعاً؛ هي وسطٌ في كلّ شيء، وهي مرادفة للاعتدال في كلّ أمر...

أبوه كان معلِّماً للتاريخ والجغرافية في ثانوية القرية، وهو اليوم متقاعدٌ، وقد التحق بمهنة حرَّة يسترزق منها، ويكمّل ما لا تتحمَّله منحة التقاعد من نفقاتٍ وحاجاتٍ؛ وما من مثقَّف أو حاصل على شهادات عُليا في حيِّنا إلَّا وقد جلس إليه، وارتوى من معينه؛ بل تخلَّق بأخلاقه وسماحته قبل أن يحفظ مفردات مادته، وقبل أن يفهم أبعاد المكان في الجغرافية، وأبعاد الزمان في التاريخ...

أمَّا أمُّ عبد الحق، هكذا يكنُّونها غالباً، فهي ربَّة بيتٍ، متأنقة متألّقة، مبالغة في حبّ النظافة، وعشق النظام... لا يؤذيها أمرٌ مثلما يؤذيها وضع الشيء في غير موضعه، أيّاً كان هذا الشيء: كلمة، أو رأياً، أو محفظة، أو كوباً... فهي تعتقد أنَّ النظام والنظافة أصلٌ من أصول وجود بني البشر، وعبادة من أعظم العبادات في دينها؛ ولها في ذلك تخريجات طريفة، يحار العقل من أين استقتها، وكيف اهتدت إليها...

هو الثاني بين إخوته الثلاثة، يكبره أخوه عليٌّ بعامين، وهو يكبر أخته الصغرى بتسع سنين كاملة؛ وهو لمن تأمَّله ونظر في طباع أخيه وأخته، كأنه نقطة الجمع بينهما قلباً وقالباً؛ يشبه الواحدَ منهما في أمورٍ ويختلف عنه في أمورٍ أخرى؛ لكنَّ قلبه ـ بحكم الفطرة ـ يميل إلى أخته ندى مَيلاً شديداً، حبّاً وعطفاً، أو لعلَّ سبب ذلك هو الحرص والوصاية؛ حرصٌ مبالغٌ فيه كيما تبقى جوهرة مصونة وبيضاً مكنوناً؛ أو وصايةً عليها شأن البنات في العائلات الشرقية المحافظة...

وعلى كلٍّ تزوَّجت ندى في سنّ التاسعة عشرة، وهي اليومَ أمٌّ وممرضة، وعبد الحقّ لا يفرّط أبداً في زيارتها كلَّما واتته الفرصة، وسافر إلى وهران حيث مستقرُّها وإقامتها، وحيث عِرسها وذريتها... أمَّا عليٌّ فقد اختار طريق التجارة والأعمال الحرَّة، وهو تاجرٌ ناجحٌ في مجال الخشب ومشتقاته بالشرق الجزائري...

بيت الأسرة يقع في أقصى القرية، وهي بعيدةٌ عن وسطها،

هي بالبادية أشبه منها بالحاضرة، وهي تحفةٌ متواضعةٌ محتشمةٌ، بين مروج خضراء زاهية، وغابات مدهامَّات ممتدة، ومزارع وجنات من أشجار البرتقال، وقليل من الزيتون، وبعض الخضر الموسمية... وكلُّ ما في هذه الربوع يعانق السماء، ويفاخر الأرض، ويحكي لحن الجمال للأجيال...

له عَمَّان ولا عمَّة له ولا أخوال؛ الأوَّل يسكن في بيت العائلة الكبرى، ورثه من والده؛ والثاني يحسَب في عِداد المهاجرين، وقد غادر إلى كندا، واستقرَّ في مدينة صغيرة تطلُّ على (بحيرة الدبِّ الكبير) معلّما للرياضيات؛ ولقد تزوَّج من طالبة ذات أصول بولونية، درست معه في قسم الهندسة الميكانيكية، جامعة أوتاوَا...

وماذا عن الأجداد والجدات، وعن الجيران والأصدقاء... ذاك نهرٌ لو غطسنا فيه قد لا ننتهي إلى مداه، وقد لا ندرك منبعه منطلقاً، ولا حدَّه مصبّاً... فلنصُم عنه، ولنترك القارئ يشغل فيه خياله، ويقيس ما لم يُقل بما قيل، ويبني ما لم يمرَّ بما مرَّ...

ولنعُد إلى عبد الحق، كيف دبَّ وشبَّ، ثم كيف كهل حتى بدا عليه بعض الشيب...

❊ ❊ ❊

بدأ عبد الحق حياته كأي طفل من أطفال القرية الجزائرية المحافظة، التحق بالفقيه في الكتاتيب اللصيقة بالمسجد، الذي يبعد عن منزله بحوالي نصف كيلومتر؛ وحفظ قسطاً من القرآن

حفظاً متقناً، إلَّا أنه حفظٌ على غير أحكام التلاوة... ثم التحق بمدرسة ابتدائية... ثم متوسطة... ثم ثانوية... فكان وسطاً في كلّ شأنه: النقاط، والعلاقات، والذكاء، بل وحتى الجاذبية التي يحرص عليها كثير من شباب هذا العصر؛ كان وسطاً فيها... أمَّا سلوكه، وأخلاقه فكانت جوهراً، يشهد له بذلك جميع الأساتذة، وأصحابه، حتى الذين لا يُكنّون له كبير وُدٍّ...

حصل على الباكالوريا، قسم الرياضيات، بعلامة مقبولة؛ ثم ابتسم له القدر الجميل؛ فدرس في معهد عالٍ للإعلام العالي...

ثم حين تخرَّج بشهادة (مهندس في أمن شبكات المعلومات)، بنقطة جيدة، وبعلامة ممتازة... اتصل ببعض الشركات الوطنية، بحثاً عن الوظيفة، فلم يفلح... وما كان منه إلَّا أن جرَّب حظَّه مع شركات دولية في مختلف المجالات، ما دام له رصيد من الانجليزية يمكّنه من الاشتغال فيها بسهولة... والحق أنه حلم أن يستدعى إلى شركات للبترول، لها حضور في مجال المحروقات بالجزائر، من مثل (أرمكو)، و(أناداركو)، و(شلومبيرجي)، و(بنتيني)... وغيرها؛ ولقد راسلها جميعاً؛ إلَّا أنَّ الردَّ جاءه من خارج البلد...

ففي يوم شديدِ البرودة، سطعت شمسٌ في سماء عبد الحق، فنشرت الدفء بين أوصاله... فكان ذلك اليوم مشهوداً لن ينساه أبداً... ففيه استقبل رسالة عبر (الدي أش أل)، حملها إليه شابٌّ يعمل موصلاً للبريد بدراجته النارية الخفيفة... وفحوى الرسالة المباركة، أنَّ شركة (شال) البريطانية الهولندية، لها

قاعدة لاستخراج الغاز الصخري في جنوب إفريقيا، بمنطقة (كارو) الصحراوية... هذه الشركة قبلت طلبه الوظيفة، فعينته على رأس قسم (البرمجيات وأمن المعلومات) في الشركة...

❋ ❋ ❋

لم تعرف حياة عبد الحق ساعات عسيرةً، ولا أياماً صعبةً، ولا أحداثاً ذات بالٍ... سوى أنه حين كان قبل سنين تلميذاً في الثانوية، يتذكَّر يا للهول، أنَّ كبار القرية في مجالسهم كانوا لأيام، بل لأسابيع متوالية... كانوا في جدال سخين، وكانوا في أمرٍ مريجٍ؛ حتى إنه سمع السبَّ والشتم، واستمع إلى عبارات التسفيه والتخوين، لجهةٍ اكتشف لأوَّل مرَّة في عمره القصير، أنها (جهة أخرى)، (جزيرة مغايرة)، (قوم آخرون غير مرغوب فيهم) (هم ليسوا مثلنا)، (أشرارٌ بالطبع)، (مفسدون أباً عن جدٍّ)، (ليس فيهم رجلٌ رجلٌ)، (لا نخوة لهم)، (هم الغدرُ يمشي على رجلين)، (لو كان الأمر بأيدينا لمحوناهم من الوجود)، (هم أعداء لنا صاغراً عن كابر، بل هم أعدى من اليهود والنصارى)، (سمعنا الشيخ الفلاني يجيز لعنهم)، (هم مهدورو العرض)، (لقطاء)، (نسبهم غير شريف)، (حثالة)، (متخلفون)... إلى غير ذلك من أوصاف للعرش الآخَر في القرية، وهو المعروف بالعرش (القبلي) في التاريخ السحيق للمنطقة...

يتذكَّر عبد الحق، بعد سنين أنَّ هذا الحدث الكئيب أودى بحياة عائلة برمَّتها، الأمُّ والأب وخمسة أبناء، إثر حريق شبَّ في بيتهم القروي، وهو ليس كأي حريقٍ، ذلك أنه نتيجة حمأة

القتال الذي دار بين العرشين (القبيلتين، الصفَّين) بجميع أنواع الأسلحة البيضاء اليدوية: الهراوات، والأحجار، والسكاكين، والشواقير، والأحزمة الجلدية... وحتى بعض البندقيات القديمة التي كانت تستعمل لصيد الحيوانات والطيور، ها هي اليوم ترتقي لصيد بني الإنسان...

في حمأة قتال دام يومين وليلة، حاول شباب طائش من (القبلية) إضرام نار على (زريب) من الأغصان اليابسة لشجر الرمان، ولقد كان الزريب محاطاً بحوشٍ صغير لهذه العائلة، التي يعرفها عبد الحق معرفة لصيقة... فانتقلت النار يالليهول إلى سقف الدار... ثم التهمت أبواب البيت، والأثاث، والأغطية، والملابس، واقتحمت المطبخ فانفجرت عبوة غاز كبيرة... فمات جميع من في الدار عن بكرة أبيهم، ولم ينج منهم أحدٌ..

هذا هو الحدث الأبرز في طريق الفتى، ولقد زعزع قناعاته، وهزَّ إيمانه بالأخوَّة، وبمصير الوطن، وبحقيقة البلد، وبمدلول الخير والشر؛ وكشف له عمق العداوة بين (النحن) و(الآخر) من داخل بيت الإسلام، وصعب عليه الجمع بين ما رأى وما قرأ فيما حفظ من كتاب الله؛ وهو حين يقرأ: (إنما المؤمنون إخوة)، ويحاول جاهداً تطبيق الآية على قريته المسلمة الصغيرة، ترقص أمام ناظريه الكلمات، ويغشى المعانيَ ضبابٌ كثيفٌ... بخاصَّة حين يتلو قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: 28/3].

ثم أنى توجَّه سمع ورأى الانهزام المهين في مواجهة (الآخر)

غير المسلم... (الآخر) الذي حاربَنا في ديننا، وانقضَّ على خيرات بلادنا، وجهَّل أجدادنا وآباءنا، وقتَّل رجالنا، وسبى نساءنا، ويتَّم أبناءنا... هذا (الآخر) الذي فيما يبدو قد نسيناه، بل أحببناه، وصار بعضٌ منَّا يسبّح بحمده، ويلوك الكلام بلغته، ويحلم أن يكون يوماً مَا عبداً ذليلاً في ضيعته...

يتذكَّر عبد الحق أنه بعد سنوات من هذه الحادثة الأليمة، حين كان طالباً في السنة الأخيرة من الجامعة، قرأ مقالاً أو نصاً في كتاب، لا فرق، لعالم مؤرخ جزائري كبير، وفي المقال عبارة فسَّرت له الكثير مما اعترى قريته من فتن ومحن؛ ومن جملة ما قرأ:

(... وبدل اهتمام الجزائري بما في وطنه من وحدة وتنوُّع، ومن ثورة وقوة؛ أخذ يهتمُّ بعرشه وعشيرته وقريته ومدينته، ظاناً أنَّ ذلك هو مجاله وفلكه، وأنَّ أهلَه هم قبيلتُه وليس مواطنوه في القطر الجزائري كلّه؛ هذه المحليَّة الضيِّقة نتجَ عنها جهلٌ وتجاهلٌ للآخرين، والتقوقُع الداني، والاعتزاز بماض عائليٍّ، أو قبليٍّ، لا قيمة له في ميزان الأمجاد والبطولات والحضارات...).

ثم إنه هلَّل وكبَّر يوم قرأ عبارة مركَّزة في مقال نسي صاحبه، وفيه ورد:

(ثمة مقولةٌ تحوَّلت بمرور الزمن، وتكشُّف الخبرات، إلى شعار يتجاوز مجرَّد الاستشهاد إلى الاعتماد، وهي مقولة (لعن الله ضيق الأفق)... لكن ونحن نمارس رياضة (توسيع التنفُّس) مجتمعيّاً وفكريّاً، حضاريّاً وثقافيّاً... ونحن نحمل أنفسنا على

اكتساب (ملكات الحركة الرياضية الخفيفة)، نجد أجسادنا وعقولنا وقلوبنا وجميع وارداتنا (مخلِدة إلى الأرض)، مدعوَّة (لأن تقعد مع القاعدين)، وأن ترتاح بـ (الانتساب إلى حدود ضيقة؛ فتصبح رهينة مخانق ومضايق).

هذه المعاني، حتى ولو جاءت بعد سنين، أعادت بعض الثقة إلى فؤاد عبد الحقّ، وخفَّفت شيئاً من آلام جرح حفر طويلاً في قلبه وعقله؛ ولكن، على كلّ حالٍ... لا يزال الجرح لم يُقتلع من أصله، ولا تزال الفتنة تستيقظ من حين لآخر، في ربوع بلاده وبلاد كثيرة عزيزة عليه...

هكذا بعد التخرج في الجامعة، تزوَّج عبد الحق، وكان سعيداً ب (ابنة العمّ)، والحق أنه كان يحلم بالزواج من خارج (العرش، والقرية)، بل من مكان بعيد... أبعدَ ما يكون على امتداد خريطة الجزائر الطويلة؛ غير أنَّ الأعراف، والعادات، ورغبة الأمّ، وتعلات الواقع، وثقل الانتماء، وشدَّة وطأة (المحلية)... كلُّ ذلك وقع حاجزاً بينه وبين حلمه...

لكن، والحقُّ يقال، صادفَ امرأة شابة خلوقة، منحته السكينة، وولدت له ذرية طيبة، ابناً وبنتاً، اعتنت بهما عنايةً فائقةً؛ فهو من هذه الجهة، وهذا الباب، لا يندم على شيء... كيف لا، وقد اجتمع عنده ما تفرَّق عند غيره من لِداته وأترابه وأقرانه: الصحة، والعلم، والوظيفة، والمال، والزوجة، والذرية... بل وحتى الوالدان أبقاهما الله قيد الحياة، يمنحانه الودَّ، ويعبران له في كل مناسبة بالفخر والرضا، ويزودانه بالدعاء لا يفترون

في ذلك، ليلاً ونهاراً، بكرةً وعشيّاً...

مثل غصن مسجًّى بزهرات (الفريزية) الصفراء الفاتنة؛ كانت زهرات عبد الحق تتفتَّح الواحدة تلو الأخرى، حتى عمرت المكان عطراً زكيّاً، وملأت الزمان ذكراً ذكيّاً، وزيَّنت الربوع منظراً بهيّاً؛ تجاوز الحارة والمحلَّة، ثم ذهب بعيداً عن القرية والمدينة والبلد... أينما حلَّ زرع الأمل والتفاؤل، وكان مثالاً للعمل والتفاني...

ثم فجأة، دون سابق إنذارٍ، ذبُلت الزهرات العشرة واحدة تلو الأخرى، وتغيَّر لونها؛ بل حتى شوكها تيبَّس، وصار أقرب إلى إبر سعف النخل منه إلى شوك الورد...

كيف ذلك؟

هنالك في عالم السرّ، قبل عامين أو يزيد، نزل طارئ ما على الكهل؛ ولقد كان لأعوام مضت كلما عاد في العطلة من (صحراء كارو) إلى بيته في الضيعة... أي كلَّ أربعة أسابيع (4/4)... كان يحمل بين جنبيه قلباً محبّاً، يهشُّ به ويبشُّ؛ يتمناه كلُّ من حوله، بخاصَّة الزوجة والوالدان والولدان... أمَّا هذه المرَّة، فقد سافر إلى بلده بجسده، بجثته، بقشرته، وإن شئت فقُل بشوكه... وترك هنالك على بعدِ آلاف الكيلومترات قلبه ولبَّه، شوقة وحبَّه، انشراحه وأمانيه...

ففي هذه المرَّة، قبل عامين أو يزيد، كان يدخل البيت مثقلَ الخطى، ثقيل الظل: لا يبتسم كعادته لزوجته التي تتزيَّن له كعادتها؛

ولا يحضن الابن، ولا يقبّل البنت كعادته، رغم أنهما يندفعان نحوه بحرقة كعادتهما؛ ولم يستفتح بزيارة والديه حين توجهه من المطار إلى الدار كعادته، رغم أنهما كانا يعُدَّان الأسابيع وهي تلتهم الأيام، ويحسبان الأيام وهي تسحق الساعات... شوقاً لقرة العين، كيما ينزل نوراً بينهما... وهما لا يغادران الدعاء لله أن يحفظه، تلك كانت عادتهما...

على كلٍّ، مرَّت العطل الخمسة أو الستة بعد ذلك، ثقيلة ثقل الذنوب، باردة برودة الكسل؛ قاتلة مميتة موت الحماقة؛ وعبد الحق كان خلالها يتمنَّى الذهاب إلى هنا، بعد أن كان لأعوام يتمنى العودة من هنالك... ويكره السفر إلى هنا بعد أن كان يقفز شوقاً حين يقترب السفر إلى هنا...

بين هنالك... وهنا...

وبين هنا... وهنالك...

يسكن جميعُ السرّ، ملخَّص المحنة، وعنوان الفناء...

بشوق شديد سافر في شتاء العام الماضي إلى حيث يعمل، وما إن مرَّت عليه بضعة أيام، حتى وقع هشيماً تحت أنقاض آلة ضخمة عالية، انكسر ذراعها، فسقطت كتلة من الحديد عليه، وأردته قتيلاً، ميتاً... أو ربما شهيداً... من يدري؟

بسرعة البرق بلغ الخبرُ عائلتَه هنا، في المراتع والربوع، وأقيمت مراسيم العزاء حسب التقليد الجاري، وقد تلقت الأسرة الجثَّة عبر طيران دولي؛ ونزل البومُ ضيفاً ثقيلاً على المحبّين...

بخاصَّة البنت التي كانت أعجز الكل صبراً، ولازمت البكاء والنحيب أياماً وأياماً... بكاء لا ينثني، ونحيباً لا ينتهي...

ثم بعد أسابيع تلقت الأسرة دعوةً لتسلُّم صندوق يحتوي على (خصوصيات) المرحوم: أوراقه، ملابسه، عطره وكيس الحمام، الصور التي يعلقها في غرفته، وكتبه... وهاتفه الشخصي، وجهاز الكمبيوتر المحمول... بل وحتى ما تبقَّى من حسابٍ بينه وبين الشركة، وكذا مبلغاً مالياً معتبراً للتعويض عن الحوادث، والتأمين على المخاطر...

من حسن الحظ، أنَّ الأب ـ باعتباره وكيلاً شرعياً ورسمياً على الوصية ـ هو الذي وقَّع على (وثيقة تسلُّم الأغراض)؛ ولله الحمد أنه فتح الصندوق وكشف ما فيه... ولم يخبر بذلك أحداً من أفراد العائلة، حتى زوجته أم عبد الحق؛ فكان ويا للحسرة بئرَ السرّ الغائر، قتله الهمُّ فستره ودفنه؛ آثر أن يتعذَّب لوحده، على أن يُشرك الآخرين طعم العذاب، وفضَّل أن يتألم بمفرده على أن يحمل الآخرين على اجتراح الآلام...

ضمن الأغراض صورٌ، وفي هاتفيه صورٌ، وفي الجهاز صورٌ، وعلى شكل براويز حائطية صورٌ... جميعها لشقراوات وسمراوات فاتنات، بائعات الهوى؛ كان بصفةٍ (وظيفية رسمية) يأوي إليهنَّ في القاعدة السكنية التابعة للشركة...

وبين الأغراض خربشاتٌ ونصوصٌ، وكتابات وأفكار، تجمع بين (نزغ الضمير) و(دلالات التبرير)؛ ونصوص أخرى مجتثة من كتب شتى، كاتب واحدٍ، وكثيرٍ من مقاطع الفيديو له كانت

محفوظة على المحمول...

هذا الكشكول من الخواطر والآثام، من النصوص المنقولة على قصاصات، من الفقرات المؤشَّر عليها بالقلم الكاشف في هذا الكتاب أو ذاك... جميعها تنطق أنَّ الكهل الطيبَ الطوية، وقع في شرَك فعذَّبه ضميرُه، وبحث عمَّن يُفتي له أو يبرر لحماقاته، فاهتدى إلى مَن أفتاه وفتنه...

جميع هذه الأدلة والحجج والآثار، تنطق بالحق أنَّ الصيد وقع في الكمَّاشة، فاستسهل الصعبَ، واستحلَّ الحرام؛ ثم أتى الموبقات، وترك الطاعات... مستنداً إلى حائط من هشيم، متعلقاً بحبل من جحيم...

ولا أدلَّ على ما قلنا، من قصاصة بيضاء مربعة، قرأها الوالد وهو يتعرَّق، كتب عليها الغالي عبد الحق، وهو فيما يبدو يتراوح ما بين (التبرير وعذاب الضمير)، كتب بخطه المعهود، بقلم أسود، هذه العبارات:

1. الزنا رهين بالتراضي، ومن أتى امرأة برضاها، سواء أكانت بكراً أم محصناً، كان مساكناً لها لا زانياً.

2. مجرد أمر القرآن باجتناب الخمر لا يدلُّ على أنها حرام؛ فالخمر بالتالي ليست حراماً؛ إلَّا في أذهان الفقهاء.

3. المسلم مخيَّر بين أن يصوم رمضان أو لا يصوم؛ ومن لم يصم حتى بلا عذر من مرض أو سفر، فليفدِ ولا يعيد أيامه...

4. الحجاب ليس واجباً شرعاً، وللمرأة أن تكشف شعرها،

وأكتافها، وفخذها، وساقيها؛ بل الإسلام جاء ليلغي الحجاب الساتر لجميع الجسد، لا ليثبته كما يعتقد الشيوخ المعمَّمون.

5. جميع أمم الأرض مؤمنة، كلٌّ حسب ديانته، وسينجو الجميع يوم القيامة... ويدخلون الجنة... وليست الجنة حكراً على المسلمين فقط...

وفقرات أخرى... وأحكام أخرى... وفتاوى أخرى... وترَّهات أخرى... على هذه القصاصة، وعلى قصاصات أخرى...

ومن عجب أنَّ إحدى هذه القصاصات ـ ويبدو حسب التاريخ المسجَّل عليها، أنها من آخر ما كتب، أو لعله آخر ما كتب ـ زوَّق فقيدنا أعلاها عنواناً كبيراً، وضغط عليه بالحبر القاتم... عنواناً جاء فيه:

«الشيطان المارد... أفتانا»

ثم كتب تحت العنوان، ولا يُعرف هل العبارة له، أم هي من منقولاته:

(حين يموت الضمير تنشط العقارب والأفاعي...

وحين يستيقظ الضمير، تغادر الغربان المكان...

ثم يولد الإنسان من جديد).

وعلى القصاصة آثار لبلل كثير، علامات مائية، لا يَعرف الناظر هل هي من آثار الدموع، أم لكوب ماء سكب عليها، أم لعرق أحالها كذلك... وتحت العبارة دعاء هزَّ كيان الوالد

الصبور، وهزَّ كياننا نحن على إثره:

(اللهمَّ أحي ضميري، واغفر لي خطيئتي، فإني قد ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً... اللهمَّ أناجيك من بطن الحوت، وأناغيك من سجن المعاصي، وألجأ إليك وحيداً فريداً شريداً... وأنا الغريب في هذه الأرض، البعيد عن الأهل، ولقد تركتهم هنالك فوق الجمر... اللهمَّ إني أقول وأعيد: لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين...).

❊ ❊ ❊

هدية الإخوان في الميراث

من وقت السحَر إلى ما بعد الفجر للناس، هو للنوم والراحة؛ ولكنَّ الصبيَّ في سنيّه الأولى، يتذكَّر جيّداً أنَّ هذا الزمن هو لقطع المسافات؛ إذ كثيراً ما يكون فيه مستيقظاً؛ ولا يزال يتذكَّر جميع التفاصيل، ويستمع جميع الأصوات، وينتشي بجميع الروائح... التي تغمر الزمان، وتملأ المكان؛ في هذا الوقت الجميل...

المكان، بيتٌ من بيوت قصور مزاب، بهندسته الرائعة... حيث الصبي غالباً في الشتاء ينام في الدهليز، وفي الصيف ينام الجميع في السطح؛ سطح الدار المنفتح على نجوم السماء...

إلاَّ هيَ، كانت لسنوات تستقيل جانباً من صالون وسط الدار (تيزفري)، صيفاً وشتاءً، ليلاً ونهاراً...

يستيقظ الصبيُّ جوف الليل لقضاء حاجة، أو قُبيل الفجر للاستعداد للذهاب إلى المدرسة القرآنية؛ أو أحياناً تكافئه والدته بأن تفرش له فراشاً أثيراً، في الصالون المفتوح (تيزفري) إلى جنْبها؛ فتكون تلك الليلة من أمتع ساعات العمر، وهو لا يكاد ينساها مهما تقدَّمت به الأيام...

في جميع تلك الحالات، ترنُّ على الأذن إلى اليوم، نغماتٌ حلوةٌ رقيقةٌ، مثل نسيم الصَّبا، وقتَ الفجر، بين أشجار البستان، ولا تزال ترنُّ في الأذن تلك التلاوة العطرة للسور (الحواميم)، وهي تقرؤها الواحدة تلو الأخرى؛ بسلاسة وحفظ ممتاز، كلَّ يوم؛ ولا يتذكَّر يوماً أنها غفلت عنها، أو نامت قبل الفجر أو بعده دون إتمامها...

السؤال الذي حيَّر الصبيَّ يومَها هو: ما دامت جدَّتي عائشة لم تدخل مدرسةً، فمن الذي علَّمها القرآن الكريم؟ كيف حفظت الأجزاء الأصعب من كلام الله تعالى بهذه السلاسة؟ وهو في مدرسته القرآنية يتعنَّى العناء الشديد لحفظها واستظهارها؟

لم يأته الجواب شافياً، إلَّا في ليلة من ليالي الصيف؛ في جلسة سمر أسريٍّ تحت نجوم السماء؛ في بستان النخيل الجميل، وقد لذَّ الحديث وطاب؛ وفُتحت نوافذ من التاريخ كانت مغلقة موصدة في ذهن الصبي؛ فساق الحديثُ الجدَّةَ ثم فصلت القول في والدها (بابا عالو) الحاج سليمان؛ ولكن ما كان أكثر إثارةً، وما شابه الخيال؛ بل تجاوزه بأشواط؛ هو سيرة عمَّتها (بتّي انْوَعْزام) أي (عمَّة العلم)، واسمها مريم؛ غير أنه لا يتذكَّر إلَّا هذه الصفة المشرقة التي حفرت في وجدانه كأخدود لا ينمحي أبداً: بتي انوعزام... عمَّة العلم...

استرسلت الجدَّة في الحديث الشيّق، والنسيمُ الخفيف العليلُ يداعب سعف النخل، فتطير يمنةً ويسرةً؛ لكأنها ناصيةٌ لحسناء فاتنة، حين يعبث الريح بشعرِها الأملس، ويعذّب على إثرها

الهائم المستهام...

استرسلت في حديثها العذب، والماء يُسمع له خريرٌ بديع، وهو يصبُّ من عين تغرف من بئر باردٍ زلالٍ... يصبُّ في ماجلٍ أزرق صافٍ؛ وهو ماء اشتهر في مزاب بالعذوبة وحلاوة المذاق، إنه (أمان نشعبت ـ ماء الشعبة)، إذ صار مضرب المثل في البلد... ثم من الماجل ينسابُ نحو السواقي الحجرية، التي أبدعتها أيادٍ تميل إلى الفن والجمال، أكثر من ميلها إلى الفعالية والنفع...

ثم تسقي كلُّ ساقية حوضاً كبيراً، لا ريب أنه أكبر بكثير من حاجة النخيل، وأشجار العنب والرمان، والزروع للماء؛ فهي بذلك ترتوي ولا تشربُ؛ ولعلَّ هذا من قبيل إظهار النعمة، والتباهي بالوفرة، والتمتع بالنظرة... في واحة بُنيت على جنبات (وادي انتيسَه) الذي لا يجري إلَّا مرَّة في كل عام، أو أقلَّ من ذلك...

استرسلت الجدة، والوالدة تحضّر الشاي الأخضر، بالطريقة التقليدية، مع مراعاة التفاصيل التي لا يُسمح بتخطّيها أو تجاوزها: جمالُ الصينية، وبريقُ البراد، وكؤوسُ الشاي المذهَّبة الصغيرة، وكأسان كبيران يسمَّى الواحد منهما (الخلاط)؛ النعناع بنوعيه: الأخضر، والحبق الذي قيل إنه هو (الريحان) المذكور في سورة الرحمن...

وحين السقي يكون كلُّ كأس بمذاق مختلف عن السابق...

ووقتُ التحضير، وشكلُ الجلوس، وطريقةُ الرشف... كلُّها عادات متوارثة، جيلاً عن جيل، أباً عن جدٍّ...

استرسلت الجدَّة في قصَّتها العجيبة عن (بتي انوعزام) وقالت:

كنَّا ونحن صغار، صباح كلّ يوم؛ نلبس لباسنا التقليدي (تِملحفت) (المحلفة)؛ ثم نتوجَّه إلى بيتها؛ بيت (اللاَّيَتْ) (الآية) هكذا تُعرفُ وتسمَّى؛ ثم نستظهر عندها آيةً واحدةً، ثم تلقّننا الآية التي تَليها؛ ويوم غد نستظهرها، ثم تلقِّننا ما بعدها...

وهكذا، مع المثابرة، والمداومة، والنية، والحرص، والصرامة... نكون بعد عامٍ قد تجاوز عدد الآيات التي نحفظها حفظاً متقناً ثلاث مئة آية تقريباً؛ فمثلاً حفظتُ حفظاً مُتقَناً (سورة يس، والصافات، وص) في عامٍ؛ ثم (سورة الزمر، إلى حم الزخرف) في عامٍ... وهكذا...

ولا يعنينا أن تكون الآيةُ طويلة أو قصيرة، صعبةً مستعصية على الحفظ، أو سهلة يسيرة؛ ولتكن مثلاً «مُدْهامَّتانِ» هي آية لها يومٌ، وهو يومٌ له آية؛ ولتكن (آية الدين) آيةً ليوم، ويوماً لآية...

ثم سكتت برهة، وسمرت عينيَّ جيداً، وكأنها تعنيني بحديثها، وقالت: المهمُّ هو المثابرة، والمداومة، والالتزام... ثم قالت: «الدوام يثقب الرخام، يا بنيَّ» (أمَمِّي)...

استرسلت الجدَّة، بعد أن ألقت نظرةً رحيمة على والدي وهو قدامها يصغي باهتمام؛ قالت: «رحم الله (بتي انوعزام) كان لها مرضُ سيلان الدم، وعدم انقطاعه، ذاقت جراءه الأمرَّين، ثم إنها نذرت لله تعالى أن تصوم الدهرَ إذا رفع عنها المرض والمحنة... ثم شاء الله تعالى أن يَشفيها، فوفَّت بنذرها، وصامت الدهرَ،

وكانت لا تفطر إلَّا في الأعيادِ، وكنَّا نحن نتسابق في استضافتها لغداء يوم العيد، لأنه حدث عندنا فريد».

وانتهى السمَر في أسرع من البرق، والصبيُّ يسبح في عالم من الخيال هنالك؛ عالَم (بتي انوعزام: اللايت)، وكان لها أربعة من الإخوة، وهذا ما علقَ بذاكرته الطفولية إلى ما شاء الله...

❊ ❊ ❊

بعد أعوام، مرَّت بسرعة الضوء، ها قد بلغ الصبيُّ عمر الفتوَّة، وهو في (المعهد الجابري) في تمدرُسه القرآني الحرّ، وفي الصف الثالث والأخير من الثانوية، قسم الرياضيات، في تمدرسه الرسمي...

بعد أعوام عاد إليه الحنين، لمعرفة تفاصيل أكثر عن (بتي انوعزام)، وعن (باباعلو)؛ وعن كل ما سمعه وهو صبيٌّ، في ليالي الهنا، وأيام المُنى...

لـمَّ الفتى شمل ما يشبه (فريقاً للبحث): صديقه اللصيق محمد ابن إدريسو، وابن عمَّته الرفيق محمد شريف، ولئن كان الناس يومها يقولون بالفرنسية: **Les Trois Mousquetaires** تأثُّراً بالإعلام، وتمثُّلاً لأبطال الأفلام؛ فإنه يحقُّ أن نقول عن الفريق: (المحمدون الثلاثة)...

لمَّ شملَهم، وبدأت رحلةُ التنقيب، والبحثِ، والسؤال، والتدوين، والمقابلة، وفضّ الخزائن الموروثة، وقراءة المخطوطات الفريدة، وتدوين المعلومات الموثوقة..

اجتهد الثلاثةُ، وواصلوا الليل بالنهار، في متعة تُضاهي متعة العابد؛ إلى أن استقام مشروعُهم بحثاً طبع على آلة (الرونيو)؛ ولقد حقَّق الباحثون من خلال بيانات المخطوطات والوثائق؛ أنَّ الجدَّة والدها هو (باباعالو) أي الشيخ الحاج سليمان، وعمها الأول هو الشيخ صالح، وعمها الثاني هو الشيخ إبراهيم...

كانوا ثلاثتهم أهل علم، وهم النساخ لمؤلفات والدهم الحاج امحمد بن سليمان ابن إدريسو؛ ولقد كانت لهم حلقٌ للدرس في (تدارت أنوعزام) دار العلم؛ قسَّموا اليوم فيما بينهم، منذ ما قبل الفجر إلى ما بعد العشاء... لا تكاد تنتهي حلقةٌ في فنٍّ حتى تبدأ حلقةٌ أخرى في فنٍّ آخر من فنون العلم؛ مع فترات انقطاع ضرورية، مثل القيلولة في الصيف...

اكتشف الفتى، رفقة صحبِه، وهو في رحلته العلمية النادرة المثال... اكتشف وهو يسير على شاكلة سمك السَّلَمون: من المصبِّ إلى المنبع، أنَّ جدَّته أخذت العلم الرصين عن عمَّتها، وأنَّ عمَّتها أخذت العلم المتين عن إخوتها، بخاصَّة (باباعالو الحاج سليمان)؛ وبهذا اكتمل المشهد الرائع؛ ذلك أنَّ إحدى حلقات والد الجدة (باباعالو) كانت مخصَّصة للنساء؛ في فقه النساء وما يحتجن إليه من أمور الدين وتدبير الدنيا؛ وكانت القراءة من كتاب (الوضع) للجناوني، ثم من (قواعد الإسلام) للجيطالي، و(مقدمة التوحيد) لابن جميع، ثم (شرح النونية، وشرح الرائية) للملوشائي؛ ثم كتاب (قناطر الخيرات) للجيطالي...

هي حلقات للفقه بمعناه الواسع: عقيدة، وعبادات، ومعاملات،

وتزكية، وأخلاق، وشيء من السيَر والمناقب... وتتم الحلقة بالقراءة باللغة العربية، ثم يشرح الشيخ بالمزابية، ويوسّع ويعلّق؛ ذلك أنَّ جلَّ الحضور في حلقات الرجال، ومن باب أولى في حلقات النساء؛ لم يكونوا ممن يقرأ ويكتب بالعربية؛ ولكنهم غالباً يحفظون المتون، ويضبطون الأحكام، ويخرّجون الأقوال وينسبونها إلى أصحابها... كان الجميع فقهاء على الأسلوب التقليدي... شأن بيوت نفوسةَ في العهد الغابر، عهد الشيخ أبي زكرياء يحيى بن صالح الجنّاوني...

ردَّد سمك السَّلمون، وهو يسبح عكس التيار، السؤالَ الجدير مرَّة أخرى: والعلماء الثلاثة وأختُهم، من أين اغترفوا هذا العلم الثرَّ؟ ما مصدر هذا الخير العميم؟ أين النبع الصافي لهذا النهر الوافي؟

* * *

لم يهتد الفتى إلى الجواب مشافهةً، إذ كان السؤال أكبر ممن بقي على قيد الحياة من الأحفاد، حتى الجدَّة لم تكن تعير أهمية كبيرة لهذه الحيرة؛ فهي وإن كانت تشيد بجدها، إلَّا أنها لم تره، ولم تسمع عنه الكثير، ولم يعلَق في ذاكرتها شيء عن علمه وتراثه... فهي أمية لا تقرأ ولا تكتب...

الجواب هذه المرَّة جاء من جهة المخطوطات التي اكتشفها الثلاثة في بحثهم؛ وهي محفوظة في خزائن خاصَّة، في بيوت آل ابن إدريسو الذين حافظوا بعنايةٍ على عدد كبير من المؤلفات

بخطِّ اليد، جميعُها من تأليف رجل واحدٍ، ليس (باباعالو) ولا أخواه؛ ولكنه والدهم، وجدُّ الجدة، الشيخ امحمد بن سليمان ابن إدريسو...

❊ ❊ ❊

قامةٌ فارهةٌ...

وجه أبيض يميل إلى الحمرة...

عينان تشعَّان نوراً، غير أنه لا يُبصر بهما... كان ضريراً... لعله ولد هكذا، أو فقد حبيبتيه في الصغر، لا تسعفنا المصادر بالمعلومة...

كان سُكناه في الجانب الغربي من البلدة الصغيرة بني يسجن، وكان شيخُه يسكن ويدرس في الجهة الشرقية... وهو بعد أن أتمَّ حفظ القرآن في سن مبكّرة، واستظهر مُسند الربيع بن حبيب في الحديث، ومقدمة التوحيد، وكتاب الوضع في الأصول والفقه... تبحَّر في علوم الآلة: اللغة والمنطق...

كان امحمد كلَّ يومٍ، وهو شابٌّ في أوائل العشرين من العمر؛ كان كلَّ يوم ينتقل دون مُرافق، من حيّ إلى حيّ، ومن زقاقٍ إلى زقاقٍ، ومن شارعٍ إلى شارعٍ...

ينتقل من (باحنينوح) إلى (بدراعو)، ثم من (طالمت) إلى (بلدوعات)... إلى أن يصل عتبة «الجامعة/ بيت شيخه»، فيجدُ المعلّمَ في انتظاره، وقد خصَّه بحلقة للدرس وحدَه...

ولا يَذكر يوماً أنه تأخَّر عن الموعد، أو تخلَّف عن الدرس، صيفاً أو شتاء، خريفاً أو ربيعاً، برداً أو حراً، أوان نزول المطر أو حين تهبُّ الرياح... بل كان أحياناً يصل قبل الوقت فينتظر حلول الموعد على التمام؛ ثم يطرق الباب فيدخل، ويجلس في مكانه المألوف لا يتغير عنه أبداً؛ ثم قد يكون هناك حديث خفيفٌ بينهما: خبرٌ، أو نصيحةٌ، أو فائدةٌ...

ثم يشرع الطالب في استظهار ما حفظ من مسائل النحو، والإعراب، والإملاء، والبلاغة، والبيان، والمنطق... وغالباً، بل دائماً، هي مسألة واحدةٌ ولا يزيد، وقد يمتحنه أستاذه في مسائل قد مرَّت قبل أشهر، أو مما تعلمه قبل أيام...

كان الطالب النّبيه حاضرَ الذهن، بالغَ الذكاء، قويَّ الحافظة، متينَ الحجة... وهو يجيب أستاذه دون تردُّد؛ ثم يشرع الشيخُ في عرض مسألة اليوم الجديدة؛ من مثل (باب النعت)، أو (رأي الكوفيين في الأفعال الناقصة)، أو (صيغ الاستقراء)... ويشرح المسألة للطالب باستفاضة وتؤدةٍ؛ ثم يلخّصها له فيما يشبه القاعدة، بحيث تسهل عليه، ويطالبه بالتمثيل لها من القرآن الكريم، ومن الحديث الشريف، ومن الشعر العربي والنثر الأدبي... وذلك ليختبر مدى استيعابه للدرس، ومدى توسعه في القراءة والمطالعة اليومية...

وإذا ما نطق الشيخ الوقور بعبارة «اتْبَارْك الله» علم الطالب أنَّ وقت المغادرة قد حان، فيقومُ، ويودّع، ثم ينصرف... إلى غدٍ... ومن غد إلى بعدِ غدٍ... وهكذا بحر العام، بلا عطلة، سوى

أيام الجمَع، التي هي للبستان غالباً، وللجهد الجسدي دائماً...

أدرك سمك السَّلمون (المنبع) إذن؛ من الجدَّة عائشة إلى جدها العالم الحاج امحمد، مروراً بالأب والأعمام والعمَّة؛ أدرك أنهم جميعاً نشؤوا على هذا الأسلوب:

المداومة..

والمثابرة...

وابتغاء القليل مع الديمة...

حتى إنَّ الشيخ ألَّف من الكتب في فنون شتى: التفسير، والتوحيد، والفقه، واللغة، والمواريث... ومن أبرز مؤلفاته (اليمنُ والبركة في تفسير الهدى والرحمة) وهو تفسير لكتاب الله تعالى غير كامل، في مجلدات، وكذا شرح كامل لألفية ابن مالك، في حوالي ألف صفحة...

وكان النساخ هم أبناء العالِم الثلاثة، منهم من نسخ لوالده الضرير وهو في عمر الرابعة عشرة، كما ورد باللفظ في توطئة شرح الألفية..

إلى هنا بدا للسَّلمون أنه انتهى إلى المقصد، واكتشف المسار كاملاً: نهر يرشح علماً وعملاً، صبراً ومصابرةً... غير أنَّ سرّاً لم يبُح به الفتى بعدُ، وهو ما عناه من هذه القصَّة؛ ولقد آن أوان البوح...

❋ ❋ ❋

ذكرنا الجدَّة، ووالدَها سليمان، وعمَّتها مريم، وعمَّيها إبراهيم وصالح... ولو حقَّقنا لوجدنا أنَّ ثمّة عمّا ثالثاً، لم يرد اسمه على الألسن، ولا بين ثنايا المخطوطات ناسخاً... ولكنَّ عنواناً مثيراً لمنظومةٍ في الميراث من تأليف العالم الحاج امحمد نبَّهت إليه؛ والعنوان عجيب في صياغته ومحتواه: (هدية الإخوان في الميراث)، وفي آخر المنظومة ورد اسم العمِّ المسكوت عنه: يحيى...

تضاربت الرواية المكتوبة الواردة في شرح المنظومةِ، وهو من تأليف العالم الشيخ امحمد نفسه، بعنوان: (الفرات شرح هدية الإخوان في الميراث)؛ مع الرواية الشفويةِ، التي بعدَ جهدٍ جهيد أسندها الفتى إلى عالم حجة، وهو بدوره أسندها إلى مرجع من مراجع العلم في العالم الإسلامي؛ الأول هو الشيخ الحاج صالح بزملال، والثاني هو الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش....

تقول الرواية المخطوطة: إنَّ يحيى هو سائلٌ من قصر غرداية، وأنَّ منظومة (هدية الإخوان) هذه تعنيه، وهو المجابُ بها...

ولا ريب أنَّ التوجيه صحيحٌ، والمصدر موثوقٌ، لكنه لا يفسّر دلالة عبارة (هدية الإخوان)؛ وبالتالي فهو توجيهٌ يخفي سرّاً لم يبُح به مؤلفه والد الأربعة من آل ابن إدريسو... وهو أنَّ يحيى هو أكبر أبنائه سنّاً، هو ولده الأكبر؛ وأنَّ والده العالم وجَّهه إلى التجارة، كيما يعول إخوته والعائلة، ويمنع عنها الفاقة في وقتٍ عصيبٍ، ثم وجَّه الثلاثةَ بعده (سليمان، وصالح، وإبراهيم) إلى التربية والتعلم، ثم إلى الاشتغال بالعلم تدريساً وتعليماً؛

ابتغاء رفع الجهل عن الأمَّة، ورجاءَ نيل الأجر والرضوان عند الكريم المنان...

غير المتوقَّع، هو أنَّ يحيى لم ينجح في تجارته، وعاد إلى البلد ليشتغل في الفلاحة التي لا تسدُّ رمقَه، ولم يتحصَّل على علمٍ يُعلي من شأنه، ويبقي ذكره في العالمين مثل إخوته...

فبَدا وكأنه خسر كلَّ شيء... ولم يربح أيَّ شيء...

أمَّا الإخوة الثلاثة، فقد نالوا العلم أولاً، ثم وسَّع الله عليهم في الرزق، فكانوا ما بين مكتفٍ وغني؛ واجتمع الخير في بيوتهم على قدر...

وبدا وكأنهم ربحوا كلَّ شيء... ولم يخسروا أيَّ شيء...

وخزُ الضمير حمل الوالد العالم الضريرَ مثل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يقول: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: 84/12].

لم يكن يحيى نبيئاً فتناله العناية التي نالت نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأن يتبوَّأ خزائن الأرض، ثم يرفع أبويه على العرش...

لم يكن إخوة يحيى ظالمين له، ظلمَ إخوة يوسف لأخيهم الأصغر، فهم لم يُلقوه في الجب، ولم يتآمروا عليه، ولم يُفقروه، ولم يمنعوه من العلم...

لكنَّ القدَر الحكيم أراد لحكمة لا نعلمها، فكان ما أراد: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 29/81].

لم يبقَ للوالد العالِم من حيلةٍ إلَّا أن يؤلّف منظومةً في الميراث، وينتقي لها اسماً معبراً: (هدية الإخوان في الميراث)؛ ويعني به أنَّ إخوة يحيى (سليمان، صالح، إبراهيم) يُهدون لأخيهم يحيى كلَّ ما ورثوه من علمٍ ومالٍ؛ وأنَّ الأجر كلّه له فيه حظٌّ وفيرٌ، وأنَّ الوالد والإخوة يعتذرون له، ويطلبون منه الصفح والعفو؛ وهم ينوون له كلَّ أجر مما يسوقه الله تعالى إليهم...

* * *

وهل كانت حياة العالم الحاج امحمد ابن إدريسو ميسورةً هادئةً؟ وهل سمح له العصر أن ينعم بآثار علمه، وبمرافقة ذريته وأهله؟

هنا سكتَ السَّمك، وهدأ السَّلمون عن الحركة، ولقد بلغ النبعَ بأمان...

وهنا سكت الصبيُّ، ووجم الفتى ولاذ بالصمت؛ ومن قبلُ كانت الجدَّة عائشة تخفي سرَّها المكنون، فلم تفصح به...

سكت الحوتُ في النهر، وسكت العقل في التاريخ؛ ذلك أنَّ الوالد العالم الضرير (تُبرئ منه في المحراب)، و(هجِّر من بلدته)، و(فرَّقوا بينه وبين زوجته وذريته لأعوام)، و(رموه بشتى صنوف التهم)، و(شوهوا سمعته)، و(محوا من التاريخ اسمه ورسمه)....

فما كان منه إلَّا أنَّ خطَّ منظومةً أخرى، دبَّج لها عنواناً حزيناً: (تعزية مُصابٍ في العلوم)...

سكتَ السمكُ... سكن السَّلَمون...

سكت الصبيُّ... سكن الفتى...

سكت الناس مديداً... سكن العارفون طويلاً...

ويجمل بنا أن نسكن مع الساكنين، ونسكت مع الساكتين... مكتفين بقصَّة واحدة، هي العبرة وهي العَبرة، عنوانها: (هدية الإخوان في الميراث)...

نرويها اليوم ميراثاً،

وننويها ليوم غدٍ توريثاً...

فهل بلغ الصدى المدى؟

انتهى

❊ ❊ ❊

ملحمة جزائريٍّ قايضَ جميع مالِه مقابل سماع الأذان

- قصة قصيرة واقعية -

جلستُ إلى حصَّة (شاهد على العصر) مع الشيخ عبد الفتاح مورو، ما يقارب خمس عشرة ساعة، أغترف بالأسماع والأبصار، وبنهم شديد، حلوَ الكلام، وعصارة المعنى؛ مِن عالم عامل، صادق حاذق، منصف صريح؛ ولقد أشار في حواره إلى (توفيق الشاوي) ودوره في مساندة المقاومة في شمال المغرب العربي، إبان الاحتلال الفرنسي والإيطالي؛ ولم أكن أعرف هذا الاسم من قبل، فرُحتُ أحفر بحثاً عنه، ولمتُ جهلي بتاريخي وتراثي القريب؛ ثم عجلت فنزَّلت كتابه الشيق القابض للأنفاس: (مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامي)، فبادرت إلى النحت فيه قبل أن يبادرني الأجل؛ ولقد أشَّرت على الكثير من النصوص والمعاني، التي تستوجب التحليل والاستثمار العلمي/ الحركي؛ ومن ذلك، هذه الشهادة، التي هي بمثابة قصة قصيرة، بل ملحمة كبيرة؛ في حقِّ المهاجرين الجزائريين في فرنسا، يعود تاريخها إلى عام 1947؛ وهي قصة درامية إنسانية، ملحمة قمَّة في البطولة والشهامة؛ ليس المشاهير والأسماء الكبرى هم من يقودون

زمامها، ولكنهم مواطنون من العمال البسطاء؛ إنهم يرفضون أن يكتب التاريخ تحت ظل السيوف، أو في بلاط الأمراء؛ أو حتى بين أروقة المشاهير.

وحق لنا أن نعلن أنَّ: التاريخَ ملك للذي يصنعه؛ حتى وإن نسيه المؤرخ وتنكر له.

وعنوان القصة في مصدرها: صورة شهيد جزائري.

أما مسرحها المفترض والحقيق فهو هذه البلاد والبقاع: باريس، ميناء مرسيليا، لبنان، سورية، جدة، ميناء الإسكندرية.

ونصها الكامل مع بعض التصرف كما يلي:

«حين نشبت الحرب في فلسطين عام 1947م، وأوان التحام الجيوش العربية مع العصابات الصهيونية، أصدرت هيئة الأمم بالتواطؤ مع أمريكا وحلفائها الغربيين، قراراً بوقف القتال؛ وكان الهدف من وقف القتال إعطاء اليهود فرصة لترتيب شؤونهم، واحتلال أكبر قدرٍ ممكن من فلسطين، بإمداد الإنجليز فرصة للضغط على الحكومات العربية، بدفعها إلى الانسحاب...

وأول ما تضمَّنه قرار وقف إطلاق النار فرضُ حظرٍ على توريد الأسلحة إلى دول المنطقة، ابتداءً من موعد وتاريخٍ محدَّد؛ في ذلك الوقت كانوا على علمٍ أنَّ الدول العربية لم يكن لديها أسلحةٌ كافية، وسارعت بريطانيا التي كانت المورِّد الرئيس لها؛ إلى وقف شحن الأسلحة للبلاد العربية؛ أمَّا اليهود فقد رتَّبوا لتخزين الأسلحة والحصول عليها بطرق غير رسمية ـ ظاهراً ـ؛

لأنهم كانوا عصابات قبل أن يكونوا دولة معترَفاً بها عالمياً؛ اليهود إذن لم يتأثروا من الحظر.

وكان للحكومة اللبنانية علاقةٌ وثيقة بفرنسا، التي باعت لها شحنةً من الأسلحة، كانت معدَّة لشحنها إلى لبنان؛ وقد اتصل بي (الكلام لتوفيق الشاوي) السفير اللبناني الشيخ أحمد الداعوق، وكان من اللبنانيين المسلمين المعروفين، وهو من أسرة مرموقة. وقال:

(إنني أريدك في أمر عاجل جدّاً... أريد مساعدتك في أمر هامّ.. هو أن شحنة أسلحةٍ اشتريناها من فرنسا، موجودة الآن في الميناء بمرسيليا، ويجب شحنها قبل اليوم المحدَّد من قِبل هيئة الأمم، لمنع تزويد الدول العربية بالسلاح. وحكومة فرنسا باعت لنا سلاحاً قبل هذا التاريخ؛ ولكنَّ الصهاينة لهم نفوذ في النقابات؛ فحرَّضوا العمَّال على الامتناع عن شحن هذه الأسلحة، وأصدرت النقاباتُ قراراً يُلزم العمال بالامتناع عن شحنها. والبضاعة ملقاةٌ الآن في ميناء مرسيليا، وليس أمامنا إلَّا ثمان وأربعون ساعة (48) لوضعها في السفن؛ فإذا لم يتم الوضع فإنَّ الحكومة الفرنسية ملزمة بأن تستردها ولا ترسلها).

يقول الشاوي، قلت للسفير: «وماذا تريد أن أفعل؟!»

السفير الداعوق، قال:

«إنَّ هناك عمالاً كثيرين من الجزائريين والمغاربة في مرسيليا، وإذا استطعت أن تحضُر معي لأقنعهم بأن هذه القضية قضية

عربية/ إسلامية، وتطلب منهم أن يتصدَّوا للنقابات، ويخالفوا قرارها الذي يلزمهم بالإضراب عن شحن هذه الصناديق، تكون قد أديتَ لنا خدمة كبيرة، ولبنان ستعترف لك بهذا الفضل».

الشاوي، يقول مسترسلاً:

(اتصلتُ فوراً بمندوب حزب الشعب الجزائري بباريس في ذلك الوقت، وطلبتُ منه أن يتكفل بهذه المهمة مع السفير، ورحَّب بالأمر، واتَّصل بأصحابه هاتفيّاً في مرسيليا فوراً، وذهب مع السفير بسيارته ليلاً؛ حتى وصلوا إلى مرسيليا في الصباح. وفي الساعة الثامنة صباحاً، قبل أن يفيق أيُّ أحد، كان العمَّال الجزائريون محتشدين في الميناء، يحملون الصناديق إلى السفينة، مخالِفين قرار النقابات، متَحَدِّين المسؤولين عن النقابة. وتصدَّوا لمن أراد أن يعارضهم بالسكاكين والأسلحة الخفيفة، وكانوا حاذقين في المواجهات مع مَن يبغي ظلمَهم. وبذلك طَرَدوا من الميناء العمَّالَ الذين كانوا يمثِّلون النقابات ممن أراد تنفيذ قرار النقابة. وتم الشحن قبل الموعد المحدد له).

وعاد السفير اللبناني إلى باريس سعيداً، وقال للشاوي: (إنني أريد أن أكافئ إخواننا الجزائريين، فماذا تقترح لهذا؟)

فقلتُ له: (إنَّ الجزائريين قاموا بهذا العمل البطولي، بسبب حماسهم لقضية فلسطين، فالمكافأة التي ينتظرونها هي معاونتكم للفلسطينيين في جهادهم المشروع).

❋ ❋ ❋

ثم يواصل توفيق الشاوي، في سرد وقائع الملحمة، بتعليق يقول فيه للقارئ:

«ولكي تعرف الفرق بين موقف الأفراد والشعوب، وسياسة بعض الدول، أذكر أنه بعد هذه الحادثة التي وقف فيها هؤلاء الجزائريون هذا الموقف الرجوليَّ المشهود، حضر إلى غرفتي بالمدينة الجامعية أحد العمَّال الجزائريين، وقال لي:

«إنني أعمل في فرنسا منذ بضع سنوات، وقد سئمتُ الحياة مع هؤلاء الفرنسيين، وفكَّرتُ في أن أبحث عن بلد عربيٍّ أعيش فيه بين المسلمين، وكلُّ ما ادَّخرته من مال دفعته إلى مكتب من مكاتب الأسفار، الذي ينظِّم رحلات الحج إلى الأراضي المقدَّسة، فهل تستطيع أن تجد بلداً عربياً يسمح لي بالإقامة فيه بعد الحج؛ وأنا على أتم الاستعداد لكي أقوم بأيِّ عمل من الأعمال، فقد مارستُ مِهناً كثيرة، وما زلتُ مستعدّاً لأتعلم مهنة أخرى، أو أؤدي أي عمل ممكن، أيَّ عمل شريف يضمن لي لقمة العيش الحلال...»

يقول الشاوي: (عندها تذكرتُ ما قاله السفير اللبناني عن رغبته في مكافأة الجزائريين، لما أظهروه من حماس لتحدي النقابات الفرنسية، التي أثر عليها الصهاينة؛ تذكرتُ ما قدَّمه العمال الجزائريون الأحرار لحكومة بلاده لبنان، من خدمة لا تُنسى، وتوجهتُ إليه فوراً، وعرضتُ عليه مطلب هذا الشاب، فردَّ عليَّ بالأسف الشديد؛ معللاً ذلك بأنَّ مسألة الإقامة في لبنان ليست في يده، ولا يستطيع أن يساعد فيها، ولكن كلُّ ما يمكنه

عمله هو أن يعطيه خطاباً إلى رئيس شرطة الميناء في بيروت، لكي يسهِّل له التوجُّه إلى سورية؛ حيث يكون أمامه فرصة أكبر للإقامة هناك).

يواصل الشاوي متأسفاً حزيناً:

(أخذت الخطاب، وسلمته لصديقنا الشابِّ الجزائري، الذي وعد بالذهاب إلى مرسيليا، حيث يستقل سفينة تحمله إلى بيروت، وهناك سيأخذ سفينة تركية للحجاج، قادمة من الأناضول، متجهة إلى جدة، وفي العودة بعد الحج سينزل في بيروت، ويذهب إلى سورية إذا شاء الله تعالى).

❊ ❊ ❊

يقول الشاوي راوي القصة: (بعد أسبوعين فقط من سفر هذا الصديق، وقبل أن ينتهي موسم الحج، فوجئتُ به يدق عليَّ باب الغرفة، ودهشتُ لسرعة عودته، وقال لي:

(إنَّ الحج ضاع عليَّ؛ لأنَّ السفينة التي حملتني من مرسيليا إلى بيروت، مرَّت بالإسكندرية وتوقفت في مينائها مدَّة، ولما وصلنا إلى بيروت لم يسمحوا لنا بالنزول إلى اليابسة؛ لأنَّ السفينة التركية التي كنَّا على موعد لركوبها إلى جدة قد غادرت الميناء قبل وصولنا؛ ثم أمرونا بالعودة مع السفينة التي جئنا فيها إلى حيث جئنا، أي إلى مرسيليا).

قال الشاوي: (لما سألته لماذا لم تتوجه بالخطاب إلى رئيس الشرطة في ميناء بيروت؟)

قال الشاب الجزائري:

(إنَّ البوليس منعنا من النزول إلى الميناء حتى بقصد السياحة والنزهة؛ وذلك لأنَّه كان على متن السفينة جثمان الأمير شكيب أرسلان، وكان يحيط به عددٌ كبير من الحرس على متن السفينة، وعددٌ أكبر على الشاطئ ينتظرونه، وإنَّ ضابط الشرطة منع من نزول ركاب الترنزيت، دون سبب مفهوم، رغم الإلحاح الشديد من الركاب... فضاع منا الحجُّ، وعُدنا إلى مرسيليا في نفس السفينة التي جئنا على متنها).

❊ ❊ ❊

قال الشاوي: (لقد تألمت كثيراً لمغامرة هذا العامل الجزائري الشابِّ الفحل؛ وما أصابه من إحباط، رغم أنه كان على أمل كبير في أن أسهِّل له مشروع الاستقرار في بلد عربيٍّ مسلم، وكان عندي أمل في أنَّ سفير الدولة التي قدم لها هذا العامل وأصحابه خدمة كبرى؛ من اليسير عليه تذليل الصعاب، وتوفير الإمكانية والتأشيرة... وقد بدا لي أن السفير كان صادقاً في بحثه عن مكافأة لهؤلاء العمال الأبطال... إلَّا أنَّ التوقع كان خلاف الواقع)..

يقول الشاوي، وهنا عقدة الملحمة:

(ولما رآني الشاب وقد أصابني من الألم ما أصابني، قال لي:

(إنني غير نادم على قيامي بهذه الرحلة التي كلفتني جميع مالي، يكفي أنني عندما رَسَت السفينة في ميناء الإسكندرية

سمعتُ أذان الفجر في السَّحر، من مآذن البلد المسلم، وهذا هو الشيء الوحيد الذي استفدته من الرحلة؛ لقد كنت أمنِّي نفسي بأن أعيش في بلدٍ إسلامي حرٍّ مستقلٍّ أسمع فيه الأذان، بعد أن سئمت العيش في فرنسا، وما زال عندي أملٌ أن يتمَّ ذلك في يومٍ من الأيام).

أجابه الشاوي، ناصحاً واعظاً مسليّاً:

«يا أخي، إنَّ الطريق إلى بلاد الإسلام وإلى الإسلام ذاتِه، وإلى الحرية وإلى الاستقلال، يمرُّ عبر ميدان الجهاد ضد الاستعمار في الجزائر؛ وإنَّ هذا المؤذِّن لم يكن يدعوك بـ (حيَّ على الفلاح) للإقامة في بلدٍ معيَّن، ولكنه كان يدعوك إلى الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل شعبك واستقلال بلادك»..

* * *

وتنتهي القصة بهذه الخاتمة الملحمية، على لسان الشاوي:

(بقي هذا الشاب يتردَّد عليَّ إلى أن عاد إلى الجزائر، وعدتُ إلى مصر، وبعد ذلك علمتُ أنه كان من أوائل الذين استشهدوا في ميدان الجهاد أثناء الثورة الجزائرية المباركة).

ثم قال:

(ليس هذا الشهيد إلَّا نموذجاً لآلاف المجاهدين من المؤمنين، الذي بذلوا أرواحهم في مقاومة الاحتلال الأجنبي، إنهم كانوا مجاهدين في سبيل الله، مدافعين عن الإسلام، وعن كرامة المسلمين).

❋ ❋ ❋

ولقد هممتُ أن أستخلص المواقف ذات العبرة من الملحمة، لكنني وجدتها في كلِّ سطر، وعند كلِّ فقرة، ترشح بالعبرة والمعنى؛ وكأنها تحكي لنا واقعنا اليومي اليومَ، في صراعنا مع أعداء الحقِّ والوطن، في كلِّ مكان: على حافة قلوبنا، داخل أوطاننا، في جميع بلداننا، داخل الهيئات والدوائر العربية والعالمية... فتركت للقارئ اللبيب الحرية في التفعيل والتشغيل... واللبيب بالإشارة يفهم.

❋ ❋ ❋

زينب نسيبة امرأة نيجرية مسلمة استأنست بالذئاب، واستوحشت من بني البشر

(قصة من الواقع)

هي ليست امرأة من مشاهير النساء... لم يحدث أن ورد اسمُها يوماً على صفحات الجرائد، ولم تنشر لها صورة على أغلفة المجلات... لم تذكر ضمن قائمة الحائزين على جائزة وطنية أو عالمية... هي امرأة لا تُصنف في عداد الفنانين، ولا الرياضيين، ولا الإعلاميين...

إنها امرأة مسلمة من نيجيريا، ركبتها فكرة الهجرة، وحلمت طويلاً بالغربة، فضاقت عليها الأرض بما رحُبت... ثم قطعت على إثر ذلك مئات الكيلومترات، وهي في سفرها لا تملك المال الذي به تستقل طائرة أو سيارة أو حافلة؛ ولا تقدر على تحصيل تأشيرة للدخول في العديد من البلاد التي كتب عليها أن تقطعها طولاً.... القليل مما معها من دولارات ادخرته زاداً لرحلة العمر مترجِّلة...

ولقد شارفت زينب على الهلاك مراراً، ولحقها من الأذى ما لا يوصف... ثم إنها استأنست بالذئاب الشرسة، وجاورت

الوحوش الضارية... حتى ألفتها فألفتها... واستوحشت من بني البشر، أصحاب الرِّجلين واليدين، واللسان والشفتين... استوحشت منهم؛ لأنهم باتوا بلا قلب ولا ضمير، مذ أمد بعيد...

❊ ❊ ❊

وصلت نسيبة إلى ليبيا، ودخلتها من صحرائها، والبلد يومها مستعرٌ فتنة وحرباً، مثخن دماراً وناراً؛ ثم بعد مناورات ومقايضات أمدَّت (المهرِّبين، المتَّجرين في أرواح البشر)... أمدَّتهم بما جمعت من مال طوال السنين، وبما قبضت من دراهم يوم باعت أعزَّ ما تملك: من ثياب وزينة، وشويهات وماعز، وقطعة أرض صغيرة يرسو عليها بيتها القصديري المترنح المشروخ... أمدَّتهم بما به يوصلونها إلى شواطئ إيطاليا، هنالك في الجهة العلوية من البحر المتوسط... حيث يستقر حلمها الورديُّ، ويسكن أملها الوحيد في حياة (مقبولة)، (عادية)... لا غير.

كانت تحمل ـ من يوم غادرت بلدتها وهي أطلال ـ طفلاً صغيراً، بل وليداً رضيعاً، ابن العام وبضعة أشهر... طفلاً تأقلم مع المحن فصارت بُضعاً منه، وعرف كلَّ الظروف القاسية الظالمة: الحرَّ، والجوع، والعطش، والسجن، والمرض... وهو مع ذلك صابرٌ صبر قهرٍ، متوجِّه بوارداته ولحمه وعظمه إلى الله سبحانه، يلازم الدعاءَ بلسان حاله لا بلسان مقاله... والأم زينب لا تملك أن تشير إليه، ولا هو يقدر على النطق، وهو لا يزال صبيّاً طريّاً؛ ولو استطاع لفعل، ولكشف للعالم عن العار الذي يركب رؤوس البشر...

على متن قارب متجعِّد، سفينةٍ صغيرة مهترئة متكسِّرة، حشِر خمس مئة نفرٍ... بشرٍ... لعلهم من جنس الحيوان أو الجماد في عيون مَن اتخذهم بضاعة مزجاة... حُشروا تماماً مثل الدجاج، أو الضأن، أو البقر... حشِروا على متن القارب اللعين، حامل الموت على كتفيه، العاض على الأرواح البريئة بنواجذه...

خمس مئة من (....) على متن سفينة هزيلة لا تقدر على حمل مئة من الناس الخفاف، ولقد كانت حياتهم جميعاً قاب قوسين... ولقد أشرف الجميع على الهلاك حين هاج البحر وماج، فسقط بعضهم لقمة سائغة للحيتان وأنواع البهائم البحرية الجائعة، تلك التي كانت أرحم بهم من بني جلدتهم...

أمَّا المهربون الفجار، فلقد كانت بين أيديهم وسائلُ للنجاة، لهم وحدهم... وهذه عادتهم... وهي عادة الكبار يوم يشعلون النار في الدار، ثم يجلسون على الأرائك ينظرون، يضحكون ويسخرون؛ ويحتسون القهوة واضعين رِجلاً على رجل، يترقبون لحظة تخمد فيها ألسنة اللهب بعد أن تلتهم الآلاف والملايين...

كم في دورنا ودوارنا، وبلادنا وأوطاننا... من (سادة) أشرار فجار، ومن غاصبين يعاف جوارهم الحمار...

❊ ❊ ❊

ثم بعد مضي ساعة أو تزيد، باغتت شرطة مخافر ليبيا، المدرَّبة جيداً لهذه المهمات... باغتت القارب، ووجهت السلاح نحو قائد الدابة الملعونة، حتى يطفئ المحرك، فلم يستجب

لأوامرهم القاهرة... ثم هددوه بإطلاق الرصاص حين اقتربوا منه، وأوانها فقط استسلم وأطفأ المحرك...

قبض على الركاب الدوابِّ، وكانت نسيبة وبضع عشرات من النساء معها، تنحب وتنوح... كان ابنها فاغراً فاه، لا يفهم ما يجري، ولا يقدر على تمييز ما يلتهم قلب أمِّه... ثم زاد بكاؤها حشرجة وأسى وأسفاً، حين علمت أنها ستقاد إلى سجن في ليبيا، ثم منه تسفَّر إلى بلدها نيجيريا، على متن طائرة عسكرية... وبهذا ستعود إلى نقطة الصفر...

نعَم، ستعود إلى حيث بدأت مشوارها المنهك الحزين...

حينها تمنت الموت، لكن هيهات؛ ثمة حياة تتعقبها هي أقسى عليها وعلى ابنها الغض الطري من ألف ميتة، بألف طريقة ... إنها حياة الفقر، والجهل، والظلم، وفقدان الأمل في الحياة، وفي الدين والقيم، وفي البلاد والعباد...

فهل من مغيث؟ وهل من مُجير؟

زينب وابنها ينتظران الجواب، وعلى شاكلتهما مئات الآلاف من أبناء أوطاننا الجريحة المحتضرة... آلاف ممن هم منسوبون إلى عداد المسلمين، محسوبون إلى أمة سيد الخلق محمد الرحيم...

فإن لم يهتدوا إلى بريق أمل من جوابٍ؛ فإنهم سيحتفظون بسؤالهم العسير إلى يوم العرض العسير... يوم نقف أمامهم، وهم يسائلوننا، ويحاسبوننا، ويطالبوننا بحقهم علينا... ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 74/9-10].

يومها فقط قد يستفيق فينا الإحساس، وقد نجد الجواب الصحيح لأخطر سؤال طرح علينا في مستهلِّ القرن الواحد والعشرين...

هل من مجيب؟!

ملاحظة: القصة واقعية، وليست من نسج الخيال، فهي أقسى من كل خيال... واسم المرأة كذلك حقيقي، فهي قد نسجته من اسم صحابيتين هما: المهاجرة في سبيل الله زينب بنت محمد ﷺ، ونسيبة بنت كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي شاركت رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في العديد من الغزوات.

* * *

الداعشي الصغير:
من إنسان مسلم إلى ملائكي متطهر [1]

يقول المفكّر المرحوم علي عزّت بيجوفيتش: (إنّ الفنّ ابن الدّين، وإذا أراد الفن أن يبقى حيّاً، فعليه أن يستقيَ دائماً من المصدر الذي جاء منه)، ويختم فصله حول الفنِّ، بقوله: «إنّ الفنّ في بحثه عمّا هو إنسانيٌّ، أصبح باحثاً عن الله».

في سياق الحديث عن الفنّ والدّين وطبيعة العلاقة بينهما، ومبرّرات القطيعة بينهما ـ كما يريدها البعض ـ أذكر قصّة حدثت معي قبل حوالي خمسة عشر عاماً، وهي حادثةٌ تحكي صراعاً بين دين الفطرة ودين التطرُّف، صراعاً بين الجمال الذي أودعه الله في قلوبنا، والجمال الذي يريد بعضهم أن يجتثَّه من وجداننا باسم الله، قصّةً تحكي كيف قطَّع شاب مولعٌ بالرسم رسوماته، وكسر قلمَه، خوفاً من أن يحرَق يوم القيامة بسبب رسوماته، واستعاذة بالله من أن تلعنه الملائكة، وبقي هكذا لسنوات؛ ليكتشف بعد ذلك أنَّ الدين أبداً لم يكن عدوّاً للجمال، ولا للفنِّ.

كنتُ في صغري مولعاً بالرسم والتلوين، حتَّى صار ذلك

(1) هذه القصَّة من تأليف الباحث الصديق م. الأمين؛ وقد آثر أن يرمز لاسمه، وهي قصَّة واقعية، قصَّها كما هي من يوميّاته.

مُصاحباً لي أثناء دراستي، وغالباً ما أتحيَّن الفرص لأرسم بعض الوجوه أو الملامح، وكنت متأثِّراً برسومات واحد من زملائي الموهوبين، وقد التحق بنا في مرحلة المتوسط.

غالباً ما كنت أفضِّل المقاعد غير المكشوفة للأستاذ؛ كي يتسنّى لي الاشتغال بهوايتي، موازاة مع دراستي، أو شرح الأستاذ لنا. ومن بين أزهى سنوات الدراسة؛ أذكر أنِّي في مرحلة الثانوي تيسَّرت لي فرصة الجلوس خلف زميل أوتي بسطة في الجسم، وكان ذلك مخبأً رائعاً يجعلني أستمع إلى شروحات الأستاذ بأذني، وألهو بقلمي، وأخطّ (خربشاتي) في دفاتري.

انتقلت بي هواية الرسم إلى تعلُّم الرّسومات الكاريكاتوريَّة من لوحات المبدع (أيوب)، وكنت حينها أجمع الجرائد وأقصُّ منها صورة الكاريكاتير بصفة يوميَّة منتظمة، وأحتفظ بها في جيبٍ خارجيٍّ بمقلمتي، وكنت أحاول محاكاتها وتقليدها، وهكذا إلى أن تعلَّمتُ رسم الوجوه لوحدي بطريقة كاريكاتوريَّة، وغالباً ما كانت نهاية الكراسة ظرفاً لرسوماتي. ثمّ أشرع في تقطيع الأوراق حين يطلب منَّا جمع الكراسات وتصحيحها.

استمرَّ بي الأمر كذلك من مرحلة الابتدائي إلى أن بلغتُ الصفَّ الثاني من المرحلة الثانويَّة، والتي شكَّلت منعرجاً بالنسبة لهوايتي المفضَّلة. وقبل ذلك كان الشكُّ قد داخلني وراودتني الوساوس حول طبيعة العمل الذي أقوم به، خصوصاً بعد أن برمجت لنا مدرستنا القرآنيَّة؛ جلسة فتوى مع أستاذ (غير مختصّ)، تطرَّق فيها لمختلف مسائل العبادات، وبعض المسائل التي كانت

تراودنا في مرحلة المراهقة، وأذكر لحظتها كيف كان لكلامه وقعٌ على قلبي، وهالتني كلماتُه منذ تلك اللَّحظة، لكنِّي كنت متردِّداً بين الامتثال والمخالفة أو العصيان.

أرسل إليه أحد الزُّملاء قصاصة؛ فيها سؤال يسأله عن حكم التّصوير والرّسم، فكان جوابه صادماً بالنّسبة لي، حين قال من دون تردُّد: «لا يجوز رسم ما كان ذا روح، ويُعتبر ذلك كبيرة يقال لصاحبها يوم القيامة (**أحيوا ما خلقتم**)، وتسعَّر بهم النَّار، ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه صور. إلّا ما كان من غير ذوات الأرواح فهو جائز، وذلك كرسم الجبال أو المناظر الطَّبيعيَّة».

كنتُ حينها قلقاً تراودني الوساوس وتعبث بي نفسي، بين قلب لم يتقبَّل الأمر، ومشاعرِ إذعانٍ صادقة لمشيئة الله واختياره.

لم يقنعني جوابه حينها مع ما استشهد به من أدلَّة، إلَّا أنّي وجدت نفسي مجبراً على الخضوع والتَّسليم. حينها كنت أرسم المنازل والجبال والأشجار والأحجار والسّيارات، وغالباً ما أزيد وجهاً ثمّ أقوم بعدها مباشرة بتقطيع الورقة ورميها تكفيراً واستغفاراً من ذنب اقترفته. فكنت أُتبِع السّيئة الحسنة تمحوها. وكانت مشاعر التَّناقض تجتمع في داخلي من دون أن أفهم سرَّ هذا التَّشريع الذي يقف بالضِّد من الفنون والأذواق الجماليَّة، بدل تهذيبها.

استمرّت بي المشاعر كذلك إلى أن تحوَّلت من الثَّانويَّة إلى معهد حرٍّ للدِّراسة، وكنتُ في الصّف الثَّاني من مرحلة الثَّانوية، حين اكتشف بعض الطَّلبة أنّي كنت بارعاً في رسم الوجوه والأجسام،

فتضاربت مواقفهم بين معارض، ومتبرّئ منّي، وموافق مولع بهذا الضّرب من الفنون التي لم يسبق أن رآها في حياته، وذلك لأنّ منهاج المعهد لا يحتوي على مادَّة الفنِّ، أو ما كنَّا نسمِّيه بالتَّربية الفنيَّة. بل ولا يرى في ذلك ضرورة ولا حاجة.

وأذكر ذات يوم حين تبرّأ منّي طالبٌ يدرس معي، وهو يراني أرسم صورة لرجل، واستنكر عليّ ذلك، وقام الجدال بين الإخوة الحاضرين معنا، كنت أنا السّببَ فيه.

تطوّع أحد الأصدقاء وكتب سؤالاً في ورقة أرسلها إلى أحد المشايخ الذين يشتغلون في حقل الفتوى، وكان نصُّ السّؤال يعنيني، إذ قال: «لي صديق يدرس معنا، يرسم وجوه البشر والحيوانات، وأريد نصحه، فما حكم ذلك؟».

وكان الجواب ضربة موجعة لأناملي، قطع السُّبل، وحال دوني والوصول إلى ريشتي مرَّة أخرى.

حمل إليَّ زميلي الجواب مبشِّراً إيَّاي بأنَّه لم يكن مخطئاً؛ حين نصحني بترك هذه المعصية، ومحمِّلاً إيّاي المسؤوليَّة إن أنا رجعت إلى الفعلة الشنيعة مرَّة أخرى!

وتضمّن جواب الشيخ حكم الرَّسم والنَّحت والتَّماثيل الفنيَّة التي نزيِّن بها منازلنا، والتي أفتى فيها بالحرمة المطلقة، والوعيد الشَّديد لفاعلها، و(أنَّ المصوِّرين في النَّار، يقال لهم يوم القيامة أحيوا ما خلقتم).

ولشدَّة الجواب، ولتشدُّد المفتي، لم تسوّل لي نفسي بعدها

العودة إلى هذا الفنِّ المحرَّم، الذي يودي بمستقبل صاحبه، ويرديه في مهاوي الهلاك.

كانت استجابتي متناغمة مع تشديد المفتي ولغته المتطرِّفة؛ التي تقتضي تعذيب إنسان موحِّد وملتزم لمجرَّد أنّه كان يرسم الأجسام ذوات الرُّوح، ولم يقصد بها تشغيباً على العقيدة؛ فضلاً عن مجاراة الله ومنافسته في خلقه وصفاته، حاشاه.

أذكر أنّي تسلَّمت منه الورقة واستجبت على الفور استجابة الصَّحابة لتحريم الخمور ومعاقرتها، فقمت فورها باستخراج كلِّ رسوماتي الكاريكاتيريّة، والأخرى الطّبيعيّة، وتقطيعها جميعاً قطعاً صغيرة يستحيل تجميعها.

عند انتهاء الفترة الصّباحيَّة من الدَّوام الدراسي، ذهبتُ متحمِّساً إلى منزلنا، وعقدت العزم أن أطهِّر البيت من كلِّ ما يمنع من دخول الملائكة. كانت جرعتي الإيمانيَّة مرتفعة جدّاً لدرجة أنّي لم أكترث بأمّي وهي تمنعني من تحطيم الأصنام والتّماثيل التي اقتنتها في صيف تلك السّنة لتزيين البيت وترتيبه بطريقة فنّية.

دخلتُ المنزل، وسلَّمت على أمّي، وطلبتُ منها ـ بجرأةٍ وثقة وإيمان وتسليم ـ أن تساعدني في استجماع كلّ ما تمّ اقتناؤه من المحرّمات والأصنام والتّماثيل الوثنيّة؛ التي تسبَّبت في منع دخول الملائكة لمنزلنا، فاعترضت قائلة: وهل هي محرّمات؟ وهل هي تماثيل؟ وهل نحن لها عاكفون؟ وهل نحن وثنيُّون؟ وهل نحن نعبدها ونخضع لها؟ وهل نحن نعبد إلَّا الله تعالى؟!

تعجَّبت أمّي من فتوى الشيخ، واعترضت بأنَّ في ذلك تشدُّداً ومبالغة وتطرُّفاً، وتعقيداً للأمور، وتعسُّفاً في الحكم على نوايانا؛ إلَّا أنّ هذا لم يكن كافياً حيال وقع كلمات الشيخ وأحكامه، فقلت لها: تفضَّلي اقرئي الورقة، ولا تخاطبيني فلستُ صاحب الفتوى، وما عليَّ إلَّا الالتزام وفسح المجال للملائكة بالدُّخول إلى بيتنا.

إلاَّ أنَّ فطرة أمّي التي غلبت واعتدالها؛ جعلاها تتمتم بكلمات، وهي تقول: «"وهل بيتنا بيتٌ وثنيٌّ؟" ألسنا كلَّ صباح نقرأ القرآن، ونلهج بذكر الله، ونداوم على فعل الخيرات والمبرّات، وفتح باب الخير لكلّ سائل وإنسان..؟ أليس في هذا كفاية؟ ما هذا التَّعقيد؟»

وفعلاً أذكر حينها أنَّ والدي كان يقوم بمساعدة الفقراء والمحتاجين، وأمّي ـ بما أوتيت من فنون في الخياطة ـ تساعد بعض العائلات الفقيرة في خياطة ملابس العروس وتجهيزها بدون مقابل، وغالباً ما تستعين بالقيام باكراً على السَّاعة الرَّابعة صباحاً شتاءً، في سباق مع الزَّمن وتحدٍّ لمشاغل البيت وحاجيات كلِّ فرد منّا. ومع كلِّ ذلك لم تنج من الشّرك والوقوع في شراك الوثنيّة.

لم أفسح لأمِّي الفرصة كي تكمل جوابها، إنّما اسّارعتُ إلى أخذ علبة كرتون كبيرة، وشرعت في جمع القطع والتُّحف الفنيَّة التي تحوي صوراً وأشكالاً لذوات الأرواح، وأمِّي تلاحقني من ورائي محاولة استعادة ما يمكن استعادته، ومنعي من تحصيل

الكل.. لم أعبأ بها ما دام في الأمر تعارض بين المصالح الشَّرعيّة والأهواء والرَّغبات!!

وفي ظرفٍ قصيرٍ جمعتُ عدداً من القطع، وخرجتُ إلى فناء المنزل لتحطيمها والقضاء عليها، وأذكر جيّداً حين كانت أمّي واقفة أعلى الأدرج مندهشة من تصرّفاتي، ومذهولة من ابنها الجديد الذي بدت ملامح التَّغيُّر تظهر على سلوكيَّاته بعد أن غيَّر مدرسته.

وقفَتْ مندهشة من تحمُّسي في تحطيم القطع، وإصراري مع بعضها في التّفتيت، لأنّ أثر الرّأس لا يزال واضحاً لم يتشوَّه.. أتممت عملي وأخذتُ مكنسة لأجمع القطع وأنظِّف المكان، وارتحتُ لنجاح العمليَّة وتنظيف منزلنا من شوائب الوثنيَّة.

لم تتمالك أمّي فشرعت في الضَّحك والتَّعجُّب، ثم قالت لي فور انتهائي: (هل أنهيت؟.. مسكين أنت، لقد أتعبت نفسك) (تالقّيتش، تسعَّيِّد إيمانتش).

نسيتُ هذا الحدث تماماً، وبقي الحكم عالقاً بذهني، وشمل الحكم كذلك الصُّور الفوتوغرافيّة التي أحمد الله أنّي لم أقدم على تقطيعها كما قطَّعت رسوماتي، وظللت هكذا مدَّة ثماني سنوات؛ ليأتي ذلك اليوم الذي أدركت حينها أنّي كنت مخطئاً في فعلتي، وأنَّ الحكم الشَّرعي ليس كذلك، إنّما هو رأي مرجوح، فالدين والفنُّ يفيضان عن معين واحد، والدّين يهذِّب الفنَّ، ولا يعيقه ولا يحرمه ولا يمنعه. إلى أن مرّت علينا مشاهد الدَّواعش الجدد، وهم يستولون على العراق، ويدخلون الموصل، ويحطِّمون

التّماثيل الآشوريّة والكلدانيّة الموجودة منذ القرن السّابع قبل الميلاد، والمعروضة في متحف الموصل الفنّي والتاريخي.

لم أتمالك أمام هذه المشاهد التي تنتسب إلى الدّين زوراً وبهتاناً، وضحكت على فعلتهم ضحكاً كالبكاء، يرثي حالة أمّتنا ويفضح عوار العقل الذي ينتجها، ويجعلنا مهزلة أمام الأمم ومشهداً كوميديّاً يعرض على الأجناس من مختلف الأديان والثّقافات.

سخرتُ منهم كثيراً وضحكت من ضحالة مستواهم وصغر عقولهم.. لكن فجأة انقدحت في ذهني لحظاتٌ قديمة من حياتي، وأنا أقوم بنفس الفعلة من منطلق آخر، وفتوى أخرى، ومن مذهب آخر، وشيخ آخر، وكتب أخرى.. حينها تذكّرت قولة أمّي: «مسكين أنت، لقد أتعبت نفسك» (تالقّيتش، تسعَّيِّد إيمانتش). هل تعتقد بذلك أنّك تجسّد دينك؟ وترضي ربّك؟ آلله أمرنا بذلك؟

التّطرّف واحد، والتَّنطُّع واحد، والغلوُّ واحد، والانحراف واحد..

قد تتعدّد الأديان، وتختلف المذاهب، وتتباين الفتاوى، إلَّا أنَّ التَّطرُّف واحد.. لا يتعدَّد!!

* * *

طباخة العجين، وطباخ البنين! [1]

طبَّاخة العجين:

هي امرأة تركية، ذات مسحة من الوقار الممزوج بالرهبة، جمالها جمال العفَّة والحجاب والحياء، قامتُها مربوعة غائرة في لحافها، ووجهها مدوَّر غارق في براءته، كلُّ لحظٍ من لِحاظها الآسِر يحكي أسطورة من أساطير هذا البلد العريق... يهواها القلب، لا هوى الغانيات الفاتنات، لكن هوى الطاهرات العفيفات... كأنها خُلقت من طينة (الفردوس)، وعاشت في عالم المثل سنوات!

عمَّالة، منظَّمة، منضبطة، فنَّانة، واضحة، دقيقة، سريعة، صبورة، محتسبة... صِفاتها الخلقية لا عدَّ لها ولا حَصر، إنها سليلة الأصالة العثمانية المهيبة، وبنتُ أرض الأناضول المُهابة، هي منذ الميلاد في موقع متقدِّم من مواقع الحضارة والريادة، حتى وإن جفاها القدَر ببعض الضرِّ، ورماها الزمان ببعض المحن...

أنا لا أصف فتاة لهائمٍ كيْما يخطُبها، ولا أعدُّ (بروفات) لممثِّلة قد تغري بعض خِفاف العقول، ولا أرسم لوحة لأميرة

(1) كتبتُ هذه القصة في زيارتي لتركيا عام 2010م، وأحداثها جرت في منطقة قريبة من المطار سكنت فيها عائلياً في فصل الصيف.

من العائلات الثرية الأرستقراطية... وإنما أنقل صفحة من عمق المجتمع التركي، وبالضبط من (حي شعبيٍّ قريب من المطار)، فوق جسر (الميتروباس)، بجوار مسجد صغير أنيق، حيث المارَّة ـ وبخاصة في الليل ـ يُعدُّون بالآلاف، وحيث الحياة تدبُّ لحظة خمودها في أماكن أخرى من العالم...

والتاريخ، في اعتقادي، وعند بعض المحقِّقين، ليس هو تاريخ الملوك والحروب، وإنما هو تاريخ الإنسان بكلِّ أحلامه وآماله وآلامه، تاريخُ بني البشر في علاقتهم ببعضهم البعض، وبالحياة، وبالوظيف، وبالرزق، وبالسياسة... إلخ.

سألتها بلغة قد لا تفهمها، فأجابتني بلغة لم أفهم منها شيئاً، لكنَّ الرسالة انتقلت بيننا مئة في المئة، بِلغة الإشارات والتقاسيم والإيماءات...

قلت: من أنت؟ وما اسمك؟

قالت: هِتون؟

قلت: اسمك جميل، ما مَعناه؟

فأشارت إلى السماء: السحابة! (وعلمتُ بعد ذلك، أنَّ معناه السحابة المثقلة بالمطر)

قلت: ماذا تعملين هنا؟ وقد لاحظتُ فرناً، وعجيناً، ويديْن تعملان بخفَّة ورشاقة، رغم أنها في حوار معي، ورغم عمُرِها الكبير...

أجابت: «**بورَك**» (وهو أشبه بالمحاجبْ عندنا)

قلت: كم تبيعين في اليوم، لا بل في الليلة؟

قالت: أكثر من مئة، غالباً...

سألت: كم ثمن الواحد؟

قالت: ليرة تركية ونصف!!

فطلبتُ بضع قطع من (البورَك) اللذيذ، وشكرتُها، وودَّعتها... ذلك أني لاحظتُ الزبائن يتوافدون، وأنا على رأي المثل «ويل للشجيِّ من الخليِّ»، فخِفت أن ينالني هذا الثبور والويل...

وفي الطريق، وكان بجواري ولدي الربيع، سألته: هل تعرف ماذا يعني مئة قطعة بِلِيرةٍ ونصف الليرة، في ساعتين، أو ثلاث ساعات؟

قال: طبعا، مئة وخمسون ليرة في كل ساعة.

قلت: وهل تعرف لو حوَّلناه إلى الدينار الجزائري كم يكون؟

تردَّد، وسكت!

قلت: هو مبلغ عشرة آلاف وخمس مئة دينار، أي مليون سنتيم، وخمسون ألف سنتيم!

قال: ماذا تعني بهذه المقارنة؟

قلت: في فمي ماء...

ثم صمتُّ طويلاً... وأنا أردِّد بنبرة خافتة «**طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!... طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!... طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!**»

❋ ❋ ❋

طبَّاخ البنين[1]:

منذ بضعة أشهر، كنتُ على متن حافلة تقلِّني من العاصمة إلى وهران، وإذا بي أجاور رجلاً، ساقني القدر إلى جنبه، فتأمَّلت فيه كثيراً، ولعلَّه هو كذلك تأمَّل فيَّ كثيراً... ومِن طبيعة الناس في هذه السنوات العجاف، أنهم لا يتكلَّمون مع أحد إلَّا إذا استأنسوا منه خيراً... فالفتنة قد أحالت الأخضر غُثاء أحوى، وزلزلت العلاقات بين بني البشر، ولذلك قال عنها رسول الرحمة عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (**الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها...**).

بعد حين من الزمن، توجَّهتُ إليه، وأعدت السلام ثانية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أجابني: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

سألته: ما اسمك؟ ومن أين أنت؟

قال: عبد القادر، أنا من مدينة تيارت، معلِّم متقاعد!

فعرَّفت نفسي كذلك، وزيادة، ثم سألته: كيف تقيِّم سنوات التدريس والتعليم التي قضيتَها من عمرك؟

قال: أمَّا ضميري، فمرتاح، ومطمئنٌّ، والحمد لله... وأمَّا... وأمَّا...

---

(1) **ملاحظة لا بدَّ منها**: مصطلح "**طبَّاخ البنين**"، لا يُقصد منه الانتقاص من الأستاذ والمعلم، بل هو من قبيل المشاكلة فقط، ولأنَّ طبخ البنين أصعبُ وأخطرُ وأعظم أمراً من كلِّ طبخ آخر... من مثل طبخ القوانين التي تضيِّق على الأستاذ خناقه، وتعطي لصاحب (حرز السياسة) مكانة!.

سكتَ هنيهة، وواصل: وأمَّا ما سوى ذلك، فنسأل الله أن يلهمنا الصبر!

تظاهرتُ بعدم فهم ما يقصد، فقلت: ماذا تعني من قولك «ما سوى ذلك؟»

قال: الكرامة... الكرامة... الكرامة!... ثم تأتي أمور أخرى، مثل الاستغناء عن الناس، وكفالة العائلة، والعيش مثل باقي البشر...

لم أتمالك، واستذكرتُ دعاءً مأثوراً، فقرأته بجهر: (**اللهمَّ لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين... يا أرحم الراحمين**).

ثم سألته: هلاَّ شرحت ما تقول، وبيَّنت مغزاه؟

أخذ نفَساً عميقاً، ثم ألقاه متأوهاً، وقال: «أخي، أو بنيَّ ـ فأنت في عمر ولدي ـ إنِّي قد اخترت مهنة التعليم حبّاً بهذا الوطن، وطمعاً في مستقبل زاهر لهذه الأمَّة، واجتهدتُ ما كتب الله لي أن أجتهد، فصبرت على الحرِّ والقرِّ، وبِتُّ ليالي على الجوع والطوى... فمرَّت السنون تطويها السنون، ثم كانت المدرسة عندنا آخر همٍّ من هموم أغلب الساسة وأصحاب القرار، بل كانت عدوَّهم الأوَّل، وكان المثقفون والمعلِّمون والمتعلِّمون هم (شرُّ الناس، والعالة على المجتمع، وأراذل القوم!»... فحوربوا، ولوحقوا، وشرِّدوا، وفقِّروا، وأحوِجوا... وها أنت ترى أمامك أحد هؤلاء المعلِّمين، فهو ليس أشقاهم، ولكنه واحد منهم!

توجَّست شرّاً من حاله، وسألته: أستاذي، ما بك؟ وهل ألمَّ بك ضرٌّ؟

قال: نعم، فابنتي البالغةُ من العمر سنَّ البلوغ، ابتُليت بمرض عضال، كلَّفني الكثير، وأنا لا أملك ثمن الدواء، فما بالك بالعمليات الجراحية، أو بالسفر إلى الخارج للمداواة؟!

قلت: فكيف تتصرَّف؟

قال: محتاجاً للناس... إنهم ـ سامحهم الله ـ أحوجونا، وأشبعوا (لاعبين)، و(مغنين)، و(شباباً محتالاً)...

فسألته بجرأة: وكم كنت تتقاضى من الأجرة؟

قال: حوالي ثلاثين ألف... دينار، لا تقضي لي حاجة... وأمَّا الآن، فالتقاعد أنقَصَ من هذا المبلغ كثيراً... وهكذا يا بنيَّ مَن كلِّف بتربية البنين، وبإعداد الأجيال؟!

ثم أردف مستدركاً ومصححاً: نحن لا نبتغي الغنى، فقد آثرنا الحياة البسيطة، لكنَّنا كذلك لا نقبل الذل، ولا الحاجة، ولا قلَّة ذات اليد... مما يسلبنا الكرامة والعزة والحياة العفيفة.

سُرعان ما انتهت الرحلة، وودَّعت الرجل الشريف الأبيَّ، داعياً الله أن لا يبخسه أجره، وأن يفرِّج عنه وعن أمثاله... وعن أمَّتنا ووطننا وأهلنا...

* * *

طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين:

عودٌ على بدءٍ، إلى تركيا، وإلى الأخت (هيتون)... في تلكم اللحظة التي كنت أحاور ابني، كانت صورة (الأستاذ عبد القادر) تلاحِق عقلي، وتجرح مشاعري... ففكَّرت مليًّا، وإذا بي أنادي: (**طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!**).

تذكَّرت أنَّ تلكم المرأة، في تلكم الحالة، وهذا الرجل، في ذلك الموقف... تحظى بأجرة أعلى منه بعشر مرات كاملة!، ولقد يقاطعني أحد ويقول: كذلك الحياةُ أغلى، ولكني أستدرك، وأقول: بكَم مرَّة؟ ثلاث...؟ أربع مرات؟ ها نحن في وضعٍ المرأة الطبَّاخة للعجين أحسنُ حالاً من الرجل الطبَّاخ للبنين بخمس مرات أو أربع أو ثلاث... لا يهمُّ!!

وقلت لابني الربيع: تصوَّر أنَّ معلِّمك يتبرَّع لك بثلثي قيمة دراستك، وأنَّ أهلك ـ في المدرسة الخاصة ـ يدفعون الثلث، والحكومة هي الدافعة للثلث في المدارس العمومية... **أفلا يستحق هذا المجاهدُ منَّا وقفة، ومراجعة، وإعادة اعتبار؟!**

وتذكَّرت يوم بدأنا مشاريع **المدارس العلمية**، وهي لما تبلغ بعد المبتغى، قلنا حينها: (إنَّ المعلِّم الكريم هو الذي يمنح الكرامة للتلميذ!)، وحاولنا ولا نزال نحاول، وقد حقَّقنا شيئاً، وبقيت أشياء... ومع ذلك فالأجرة، والمال، ليس هو كلُّ شيء... فثمة معان أكبرُ وأعظم... ينبغي أن ننظر فيها وإليها، ونحن نقارن بين (**طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!**)؛ وهي معاني الحضارة، والأخلاق... وغيرها...

ولقد وصفتُ ـ في مقالي هذا ـ تلكم المرأة بأنها: (**عمَّالة، منظَّمة، منضبطة، فنانة، واضحة، دقيقة، سريعة، صبورة، محتسبة...**) فهل طبَّاخ البنين عندنا، هو دائماً كذلك؟!

طبعا، أنا أستثني الكثير ممن هو كذلك وأعظمُ من ذلك، ولكنني مع ذلك أسجِّل أنَّ الكثير هم ـ للأسف ـ خلاف ذلك!

فكيف إذن أقِيم موازنة بين «**طبَّاخة العجين... وطبَّاخ البنين**»؟ ومن أيِّ وجهة؟ وعلى أيِّ مقياس؟!

أترك باقي القصَّة للقارئ، وللمعلِّم، وللتلميذ، وللوليِّ... ولكلِّ غيور، داعياً الله أن يسدِّد مقولتنا ورأينا، ويهدينا سبل السلام والرشد والرشاد!!

* * *

صاحبة الدَّيْن

طرقَتْ الباب بهدوءٍ وحياء، كأنَّها متردِّدة متوجِّسة، تنتظر القدَر الكريم يُعينها... ففتحت ربَّةُ البيتِ البابَ، وإذا أمة لله قدَّامها، تظلِّلها غمامةٌ من الكفاف، وتتلألأ في محياها هالةٌ من العفاف...

الطارقة: السلام عليكِ ورحمة الله، أختي الكريمة.

ربة البيت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مرحباً.

الطارقة: معذرةً، جئتكِ قاصدةً فلا تردِّيني، ظننتُ فيكِ خيراً فلا تخيِّبي ظنِّي...

ربة البيت: إني فاعلةٌ ـ بحول الله ـ ما استطعتُ إليه سبيلاً، وحسبي قول الكريم المنَّان: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[الضحى: 10/93].

الطارقة: علينا، أنا وزوجي، ديونٌ، لم أجد وسيلةً لسدادها، إلَّا في العمل منظِّفة في بيتٍ، أو صائنة لدرَج عمارةٍ؛ فهلاَّ قبلتِ أن أكون خادمةً عندكِ، ولكِ منِّي الثناءُ والدعاء، ومِن الله الأجر والجزاء؟!

ربة البيت: لكن، هلاَّ صنتِ كرامتكِ، وتركتِ زوجك يتدبَّر الأمر، فلعلَّه يكون الأقدر على ذلك؟

الطارقة: أعان الله زوجي وتقبَّل منه، فقد بذل جهداً، وشاء

الله تعالى أن يخسر في تجارته... ثم خاب ظنُّه، وانكسر خاطرُه، وليس له إلاَّيَ رفداً ومعيناً...

ربة البيت: كم هي ديونُك؟ وفيمَ كانت هذه الديون؟!

الطارقة: عذراً، لا تحرجيني، فلستُ أبغي أن يحرمني الله الأجرَ والمثوبة، وليس لي في الدنيا ملاذٌ إلَّا بابه، ولا مطلبٌ إلَّا معيته...

ربة البيت: طيِّب، لا عليك، سامِحيني... ليس ذلك مقصدي... مرحباً بك... مِن الساعة أنت أختي ومعينتي، والشادَّةُ على أزري... أعِدُك أنك بإذن الله في صون وحصن وأمان.

* * *

عملت (الطارقةُ، صاحبةُ الدين) ما شاء الله لها أن تعمل، بصبر وإخلاص، ومصابرة وتفان؛ ولم يصدُر منها يوماً أنَّةٌ ولا آهةٌ، ولا تحسُّر ولا تذمُّر... فملأتْ ربوع البيت بركاتٍ سماويةً، وأنواراً ملائكية... إلى أن أتمَّت الأجل، وحصلت على ما تريد من مال يكفيها لسداد دينها...

وجاء يوم الوداع، فقالت لربَّة البيت: «بورك لكِ، وفيك، وفيمن ربَّاكِ وأدَّبك... وجزاك عن الدِّين وعن الملَّة خير الجزاء، فقد كنتِ نعمَ المعين، ولك من المولى أجر مفرِّج الكرَب... فاللهمَّ اكتبها في عبادك المحسنين؛ يا ربَّ العالمين!!».

بدموعٍ سخينةٍ، منهمرة رقراقةٍ، تمَّت مراسيمُ الوداع... هُما قلبان على الحسن والإحسان تلاقَيا... فانطلقت الطارقة بعيداً... بعيداً... إلى أن قاربت الاختفاء... فلحقت بها ربة

البيت مهرولة، وقالت: «معذرة، هلاَّ أخبرتني الآن فيمَ ديْنك، وقد أبلغَكِ الله مُنيتك؟»

الطارقة: نعم! أمَّا الآن فنعم!!

صمتَت طويلا، ثم أطرقت، وقالت: «لقد نذرتُ أنا وزوجي أن نتكفَّل بنفقات طالبٍ للعلم، لا نعرفه ولا يعرفنا؛ راجين العونَ من الملك الديان... فكان ما قصصتُ لك من أمر الخسارة، ولم نشأ أن نُحرم أجر نذرِنا؛ ولكنَّ الله هداني إليكِ بفضله، وهداك لقبول طلبي بمنِّه... وها نحن اليوم سعداءُ فرحون، مهلِّلون شاكرون... أن بلَّغَنا اللهُ مقصدنا، ولم يخيِّب أملنا... والحقَّ أقول: لقد كنتُ ولا أزال أردِّد ـ مطلع كلِّ شمس ـ الحديثَ القدسي الشريف: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء**»... وها أنا اليوم أشهد نفحاته النورانيةَ عين اليقين، بعدما كنت أعلمها علم اليقين...».

* * *

لم تقدر ربَّة البيت أن تنبس ببنت شفة، كأنَّ الخبر العجيب نزل عليها صاعقة، وهي تقيس ـ في قرارة نفسِها ـ همَّتها إلى همَّة الطارقة، صاحبةِ الدين!

ولم يطُل المشهد كثيراً؛ حتى ودَّعتها صاحبة الدين... وهنالك في أفق الملائكة... استقرَّ ظلُّها، وهو يردِّد مقولة الحكيم:

«أمَّا الأعمال المتوجِّهة لرضا الله تعالى وحده، فإنَّ الذرَّة الواحدة منها تعادل الشمس، والقطرة الواحدة منها تعادل البحار، واللحظة الواحدة منها بقيمة الأبد».

عربة العمّ رمضان

هنالك، وراء مسجد صغيرٍ، عثمانيِّ النفحات، بحي (أسكودار)، في الركن الآسيوي من مدينة الإسلام إستانبول... هنالك، تصفُّ عربةٌ خشبيةٌ، بجوار مثيلاتها؛ غير أنَّها فيما يخفى على أعين الناس، قد تكون أسعدَ منها؛ لا لشيءٍ، إلَّا للعناية الربَّانية التي نالتها؛ فساقتها إلى (العمِّ رمضان)!!

ففي صباح كلِّ يومٍ، بُعيْد صلاة الصبح جماعةً، والدخولِ في كنف الله وعنايته، ورجاءِ الفوز بذمَّته وحفظه؛ ثم بُعيْد قراءة تسابيح الصباح، وتلاوةِ أواخر سورة الحشر بخشوع وخضوع!!

في كلِّ صباح، بوجهٍ طلق، وحبور فيَّاض، ينطلق (العمُّ رمضان) من مسجده إلى عربته، يتعهَّدها، وينظِّفها، ويزيِّنها بمختلف ألوان الزهور الزاهية، والأعشاب الخضراء اليانعة... ويضع عليها بضاعته الثمينة، ثم يتوجَّه وجهة شاطئ (البوسفور)، حيث محطَّات المسافرين عبر السفن والعبَّارات!!

في كلِّ صباح، يقف (العمُّ رمضان) وقفة الجنديِّ في ساح الوغى، لا يتعبُ، ولا يجلسُ، ولا يتأفَّفُ، ولا يشتكي... كأنَّ بينه وبين الكسل طلاقٌ بينيٌّ... يقف هنالك، إلى أن يبيع كلَّ

ما لديه، أو ينتهي اليومُ وقد بقي معه بعض البضاعة، فيغادر المكان حامداً شاكراً...

لم يكن لسان (العمِّ رمضان) يفتُر لحظةً عن الدعاء، وعن الصلاة على النبيِّ المصطفى، وعن التهليل والتسبيح والتكبير... متمتماً، جادّاً، خاضعاً، مستذكِراً معاني ما يقول، وهو دوماً يردِّد دعاءً حفظه من حلق الدروس، قبل عقدين من الزمان في مسجد كبير، قريبٍ من هذا المكان، وفيه يقول:

(اللهمَّ زدني ثقة بك،

وبدعائي المتوجِّه إليك،

واجعل رعايتي للأسباب، وقيامي بها، شعوراً بأداء الوظيفة...

اللهمَّ إن بعدتُ عنك جحوداً منِّي، فحالي ينطق بأني لن أستطيع شيئاً دونك،

فالطُف بي، لا بدرجة جحودي، بل بدرجة حاجتي إليك)!!

هذا ظاهر القصَّة الموسومة بـ(عربة العمِّ رمضان)، فما هو يا تُرى باطنُها؟ وما هي حقيقتُها؟

* * *

الحقيقة والباطن تكشفهما صُرَّة الدراهم التي كان (العمُّ رمضان) يودِع فيها مدخوله اليوميَّ من الليرات؛ فأنصِتوا إليها وهي تخبرنا أنَّ العمَّ رمضان يقسِّمها ثلاثة أقسام:

- قسمٌ ليشتري به بضاعةً جديدة ليوم جديد،

- وقسمٌ ليسدَّ به رمقه ورمق عائلته الكبرى، كفافاً عفافاً.

- وقسمٌ ثالثٌ، هو محطُّ عناية (العمِّ رمضان)؛ ذلك أنَّه خصَّصه لتمويل منحةٍ كاملةٍ لطالب علمٍ.

و(العمُّ رمضان) لا يستقلُّ فعلَه هذا، ولا يحقر صدقته هذه، رغم سماعه ومشاهدته لبعض التجَّار المحسنين الكبار، وهم ينفقون مئات المرَّات أكثر مما ينفق هو!!

ولقد ارتقى (العمُّ رمضان) هذا المرتقى؛ لصفاءِ سريرته، وصدقِ نيته، وهو يعرف أنَّ وجهة برِّه ومعروفه هي الله، وأنَّ الغاية هي رضا الله، وأنَّ دفتر الحساب بيد الله، ويعلم علمَ اليقين أنَّ القلَّة والكثرة في حقِّ الكريم المنَّان، لا تخضعان لمقاييس الأعداد، ولا لمعايير العباد...

المهمُّ أنَّ (العمَّ رمضان) يحبُّ عربته؛ لأنَّها في نظره واعتقاده، هي التي ستقف شاهدةً له عند الملك الديَّان أنَّه كان مُحسناً، وكان منفقاً، بل كان آيةً في البطولة والإيمان، وعنواناً للجهاد والإحسان...

فطوبى للعمِّ رمضان، وطوبى لعربة العمِّ رمضان!!

❊ ❊ ❊

شمسٌ تسطع من مغربها!

في حديث صحيح رواه الشيخان وغيرُهما، قال رسول الله ﷺ: **(لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا طلعت من مغربها آمن الناسُ كلُّهم أجمعون)**.

ولمعنى (طلوع الشمس من مغربها) توجيهاتٌ عميقة لدى السادة العلماء.. منها توجيه أنه دلالة على انتشار الإسلام في غرب العالَم؛ وأنَّ (الشمس) رمزٌ لنوريات الدين الإسلاميِّ الحنيف؛ وأنَّ (الطلوعَ) إشارة إلى انتقال الدين ثانيةً عكس مساره التاريخي، أي أنَّه سيعود من المغرب والغرب، لينتشر في المشرق والشرق.

بغضِّ النظر عن جزئيات هذا التوجيه الحكيم، إلَّا أنَّه يبعث الأمل في النفوس، ويبشِّر بغدٍ للإسلام مشرقٍ؛ فالحكمة إذن تقتضي التفاؤل بالحديث الشريف، والعملَ على تحقيقه في دنيا الناس: بجهاد واجتهاد، وإيمان وإحسان.

❋ ❋ ❋

هذا شابٌ من المغرب الأقصى، هاجرَ إلى الغرب مسترزقاً؛ وهنالك شاء الله أن يتزوَّج فتاة طيبة عفيفة طاهرة. وليلة الزفاف

الميمون أهدى إليها مفاتيح سيارة من الطراز العالي، عربونَ حبٍّ وصفاء، ودليلَ وُدٍّ ووفاء!

لم تفكِّر العروس طويلاً؛ بل إنَّها بعفوية نادت زميلاتها، وسلَّمت لهنَّ المفاتيح تبرُّعاً ومعروفاً؛ لنشر دين الله وتقوية صفِّ الإيمان والقرآن، والتكفل بطلبة العلم من كل جنس.

بُهِت الزوج، وخفق قلبه بين حيرةٍ وتعجُّب، وقبول واستنكار؛ إلى أن سألها عن السرِّ، فأوضحت له ـ بعد أمدٍ ـ روح نصرة دين الله تعالى ومداها، ونشرت عليه عبير الهجرة في سبيل الله وشذاها؛ فبكى الرجل، ووعد الله أنَّه سيسبقها في هذا المضمار... فانطلق وهو لا يلوي على أحد!!

عاد إلى بلده في عطلةٍ، وراح يبحث عن معروف يسديه لبلده ووطنه؛ فهداه الله إلى شراء أرضٍ سخا بها لبناء مدرسة من النوع المختلف.

لكن، بعد زمن ليس باليسير، بقي الحال على حاله، وبقيت الأرض يتيمة تستمطر مَن ينبري لتشييدها وإعلاء صرحها... فانتظر البطل حتى عالَ صبرُه، وتجمَّل حتى نفِد اصطباره.

❋ ❋ ❋

ذات ساعةٍ، وفي سحر يوم شتائيِّ النسمات، هاتَف الزوجُ المحسِن شابّاً مدير مدرسة صديق له، فقال: (هلاَّ رافقتني إلى أرض المدرسة، الآن؟!).

تلكَّأ الشاب، وحاول ثنيَه عن جنونه، فلم يُفلح، وكان يحذِّره

من كلاب هائمة فوق التلَّة، ومن حرَّاس مسلَّحين، قد يخطئون فيهما ويردوهما هلكى، ولا مِن مغيث... لكن؛ أنَّى له إيقاف إعصار البرِّ والخير إذا تبدَّى؟

❋ ❋ ❋

فوق الأرض، تحت السماء، وحدهما، والله ثالثهما... رفع المحسن كلتا يديه إلى الأعلى... واصفاً حاله، باكياً، داعياً، ملحّاً، متذلِّلاً، هائماً، عاشقاً... قائلاً: (اللهمَّ ارزقني المال الكافي، لأبني هذا الصرح التربوي، فأكون من المرضيِّين عندك...).

❋ ❋ ❋

لم يكن الله ليردَّه خائباً، وقد وعده، ووعدَنا، بالاستجابة إذا أخلصنا النية؛ وبالقبول إذا صفَّينا القلب من الشوائب...

وفي ذلك العامِ رزقه الله ثلاثة أضعاف قيمة البناء، فوفَّى وعده، وأعلى صرحَ المدرسة، وأخذ العهدَ على المدير المرافق أن لا يذكر ذلك لأحد؛ إلَّا أنَّه قبِل منه حذْفَ الاسم وإخفاءَه، ورفَض كتْمَ العبرة والسكوتَ عنها... فأبرِم العقد بين الاثنين، وبلغتْ إلينا القصَّةُ من مصدرها، غير مشوَّهة ولا محرَّفة...

لكن، إلى اليوم، لا يزال الزوج المغربي المحسن في حيرة من أمره، وهو يقول: «سابقتُ زوجي ولَمَّا أسبقها بعد، فأنا أنفق مما عندي، وهي تنفق ما عندها!».

ولا يزال السباق حامي الوطيس، والفرسان في المضمار،

ولا يزال صديقنا المنفق ينزغ خيله، ويستنهض فارسه، ويردِّد النشيد الرمزي:

«قم يا نَوَّام..! يا فارسي المقدام... انهضْ، واعْتلِ صهْوتي.. وأَطْفئْ غلَّتي، وسابِقْ نشوتي..!»

قُمْ... قُمْ... قُمْ... يا فارسي!.

❊ ❊ ❊

المنديل المبارَك

للمنديل في حياة الناس دلالاتٌ ومضامِين؛ فهو عنوانٌ للنظافة والجمال، وهو دليلُ إحسانٍ وتفانٍ؛ لكن أن يكون رمزاً للبركة والهمَّة، فهذا نادر في دنيا العالَمين.

وهو كذلك في قصَّتنا هذه، فلتُتأمَّل:

كان هنالك في أعماق تركيا العَراقة، بين ثنايا شوارع (إستانبول) التاريخية النادرة المثال، امرأةٌ تسكن بيتاً مرتَّباً ومتواضعاً، وتلبس لباساً محتشماً ومتواضعاً؛ وكان شعارها المفضَّل، وقد كتبته على ورقة من (الكارتون)، وعلَّقته في مكان من البيت ظاهر، كُتب عليه:

(قلَّة الكلام، قلَّة الأكل، وقلَّة النوم... هذا جماع البركة كلّها).

وشاء الله تعالى أن تصنع هذه الأمَة من هذا الشعار قصَّة روحانية الصبغة، ربَّانية الروْح، ملائكية النبرات؛ إنها قصَّة (المنديل المبارَك).

نعَم، هي في ركن ركينٍ من بيتها، بعيداً عن الصخب والضجيج المنبعث من الشارع المجاور، نصبَتْ طاولة، عليها ماكينة خياطة، وإلى جنبها حُزم من القماش، وعلى الأرفف علبٌ جميلة، فيها

تُصفُّ المناديل المباركة بعناية، بعد أن تقبِّل أنامِل السيدة الفاضلة وبنانَها.

- كلامُها ينتظم مناديل مباركةً، بهجةً للناظرين!

- طعامُها وشرابُها مقتصر على ما يقيم أودها، لتخصِّص باقي الوقت في إبداع مناديلها المباركة.

- ونومها غفوةٌ، كثيراً ما كان فوق رُزم من (المناديل المباركة)!

ثمرة كلِّ ذلك بضاعة تبيعها لبعض التجار الأذكياء، الذين يتسابقون في شراء كلِّ ما لديها؛ لا لأنَّه أفضل ممَّا سواه فقط، لكن لأنَّهم كذلك يجدون على آثار هذه (المناديل المباركة) شيئاً عجيباً، لا يقدرون له تفسيراً؛ إنها البرَكة صافيةً، تتنزَّل على كلِّ سِنتٍ يدخل صناديقهم من بيع هذه (المناديل المباركة)!

ما السرُّ في هذه المناديل، يا ترى؟

* * *

السرُّ كشفه كاشف خفيٌّ، رجاء الاعتبار والادِّكار؛ لكنَّه أخفى اسمَ صاحبته مخافة أذيتها وإحراجها بالشهرة والاشتهار.

قال صاحبنا: أتعلمون أنَّ رَيع هذه المناديل خصَّصته صاحبته للتكفُّل بطالب للعلم، تحمَّلت نفقاته ومِنحتَه كاملة غير منقوصة؛ وقد أقدمت على برِّها هذا همَّة وإحساناً، وإعلاء لِما أمر الله به أن يرفع:

والحقُّ أنَّ صاحبة (المناديل المباركة) ببرِّها هذا، تعلِّم العالَمين درساً لا يُنسى، عنوانه: متى علت الهمَّة نزلت البركة، وحيثما تتنزَّل البركات توجد عين الله كالئةً حافظة، تملأ الأجواء سعادة وحبوراً، ليس يَعرِف مداهما إلَّا الحواريُّون المقرَّبون، الذين قال فيهم ربُّ الجلال، وهذه المرأة إن شاء الله منهم:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: 56/10-14].

فاللهمَّ احشرنا معهم، يا رحمن يا رحيم.

❊ ❊ ❊

فقط، عشرة آلاف دولار...

مِن عادة الناس، وأنا منهم، أنَّهم يقيمون المفاضلة بين وظيف ووظيف، وبين منصب ومنصب، بقدر ما يدرُّ من أجرة، وما يهبُ من رضاً نفسيٍّ، وما ييسِّر من استقرار عائليٍّ... وقد يخطئون ويشتطُّون، فيقولون: (نحن نريد أن نضمن حياتنا!). وإنَّ منهم لَمَن يتجاوز الخطأ في القول إلى التحقيق في الاعتقاد، ويجاوز الزلَّة في اللسان إلى اليقين في الجنان.

وليس (محمودٌ) من هذا المذهب، كيف ذلك؟

* * *

هو شاب في مقتبل العمر، أقبلت عليه الدنيا بخمائلها، فأكسبته الرضا والقبول، وألبسته ثوباً من الهالة والوصول؛ حتى اصطفَّت الشركات والوزارات والهيئات في طابور طويلٍ؛ تخطُب وُدَّه، وتغريه بالأكثر والأدوم والأعجل؛ إلى أن مُنح، وهو المهندس الخرِّيت، أجرةً عشرة آلاف دولار شهريّاً؛ هذا، عدا المنح والعلاوات والفرص...

كيف لا وهو المعدن الثمين، والجوهرة النادرة المثال، علماً وخُلقاً، وآثاراً وإبداعاً؟!.

إنَّه نسيجُ وحدِه، كما قالت العرب.

* * *

شاء الله، ولا رادَّ لِما يشاء، أن يسوقه إلى سفوح الخير، ويتدرَّج في النفع والعطاء يوماً بعد يوم؛ إلى أن جاء اليوم المشهود، ويُختبر في أحبِّ شيء، وبأشدِّ الصور قسوةً... إنَّها لحظة الاختيار، بين المصلحة والواجب، بين الأجرِ والأجرة، بين العاجل والآجل؛ وصدق من قال: «إذا أردتَ أن تحيِّره فخيِّره».

حضر درساً قرآنيَّ الأنفاس، نبويَّ الزفرات، صحابيَّ الوثبات، فسمع ويا لشدَّة ما سمع: (ألا إنَّ الهجرة قد وجبت، فمن منكم يشتري الجنَّة، فيغادر الراحة إلى الأبد، ويزمُّ حقائبه، ويقصد أوراسيا... هنالك طيبةٌ بروحها السنيِّ، وهنالك المدينة المنوَّرة بعطرها الشذيِّ... هنالك في أوراسيا تسكن أرواح الصحابة الكرام، ممن هاجر وهجر، وممن قال فيهم ربُّ الأنام: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[الحشر: 8/59].

* * *

وقعت الواقعة، ونزلت الصاعقة، وبدأ الحوار الداخليُّ بين شهوة الفتى وضميره:

(أيترُك عشرة آلاف دولار أجرةً شهرية، والراحةَ والسعادةَ في مغاني إستانبول الفوَّاحة، وبين مرابعها الصوَّاحة؟!... أم يذهبُ إلى هنالك، حيث القفر اليباب، والمخاطر المحدقة، والبعدُ عن

الأهل والولد، وعن الحيِّ والبلد... ولا ينال من الأجرة ـ هنالك ـ إلَّا ما يسدُّ رمقه، ويقيم أوده... وقد يُحرم هذه الأجرة يوماً، أو يُطلب منه التبرع ببعضها إذا اقتضى الحال؟!)

ما هذا المنطق؟! وما هذه المفارقات؟!

* * *

لم يطق القلب والضمير، ولا الإيمان واليقين، صبراً، ولم يتقبَّلا الصمت عن التهمة الموجَّهة إليهما، وهما بالحجَّة أولى، وبالبيان أدرى، فقالا:

(نعم، سنخسر عشرة آلاف دولار؛ ولكنَّنا سنربَح جنَّة عرضها السموات والأرض، أعدَّت للمتَّقين...).

(نعم، سنخسر السكون والهدوء، وسنربَح رضا الملك القهَّار، الذي يهب السكون والهدوء للقلوب اليقظة الضارعة؛ حتى وإن ألقيت في نار سقر، ومرِّغت في قرارة جهنَّم...

وما السكون إذا لم يكن ربانيّاً إيمانيّاً؟!. أمَّا ذلك الذي تصنعه المادَّة وتُغليه الأموال، فحُقَّ لنا أن نسمِّيه (الركونَ) لا (السكون)، (الخذلانَ) لا (السعادة).

* * *

قرَّر محمودٌ، ومحمودٌ محمود... وما تردَّد هنيهةً، بل فصل في المعركة بضربة قاضية، لا بالنقاط فقط؛ فطلَّق الذي هو أدنى، وتعلَّق بالذي هو خير... ثم سافر بعيداً... بعيداً... إلى

بلاد (الفيكنغ) قديماً... وها هي شمسه تشعُّ نوراً ودفئاً على السالكين، ثم ها هي بركاته تنير الدرب للواصلين...

إنَّه (مصعب بن عمير) هذا العصر؛ إنَّه من طينة (سفير الإسلام)، الذي اصطفاه الرسول الكريم (لرجاحة عقله، وكريم خلقه)... ووقف على جثته يوم أحد، وتلا قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب:23/33]، ثم ألقى ـ في أسًى ـ نظرةً على بُردته التي كفن بها، وقال: (**لقد رأيتك بمكَّة، وما بها أرقُّ حلَّة ولا أحسن لمَّة منك. ثم ها أنتذا شعثُ الرأس في بردة**).

فألفُ ألفُ مبروكٍ لعصرنا أن وجد فيه محمود، والسلام على محمود يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيّاً...

❊ ❊ ❊